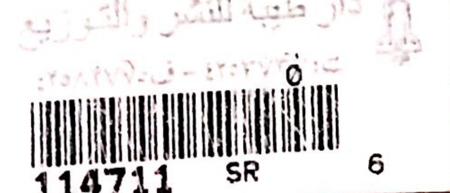
يوسف العظم

الإيمان

وأثره في نهضة الشعوب

قدّم له الشهيد سيّد قطب

الدار السّعوديّة
للنشر والتوزيع



مُقَدِّمَة الكِتَابْ

هذا هو الكتاب الفكري الأول الذي أكتب . . .

بدأت به يوم كنت في أخريات أيامي على مقاعد الدراسة في الجامعة عام ١٩٥٤ م . . .

وما كان لي أن أغير اليوم منه شيئاً :

اولاً : لأن معظم ما ورد بين دفتي الكتاب ما زال قائماً من حيث الفكر والرأي لم يتبدل .

وثانياً : لأني أحب أن أشير الى الأسلوب الذي اكتب به منذ ثلاثة عشر عاماً . . فأكون أميناً فيما أقدم للناس وأضع بين أيديهم .

ولقد كان جميلا من « الدار السعودية للنشر » أن تطلب إلي

إعادة نشر الكتاب ، وهي محقة في ذلك ـ كما يبدو لي على الأقل ـ لأن الكتاب لم ينشر كما ينبغي له . . إذ كان رهين المحبسين . . السجن الذي احتواه والأوامر التي صدرت بمنع توزيعه حين يفرج عنه ، إلى أن غفل « القوم » عنه يوماً أو بضع يوم فانطلق يجوب أحياء « القاهرة » قبل غيرها من العواصم العربية ، تتناقله الأيدي المتوضئة وتتحدث عنه الألسن النظيفة ، حتى قدر لنسخة منه أن تتسرب إلى يدي في « عمان » فحفظتها وحنوت عليها كما يحنو الوالد على « البكر » من أبنائه .

وأنا اليوم إذ أضع الكتاب من جديد بين يدي القراء وعلى مستوى من الانتشار أوسع ، لأرجو الله أن يتقبله مني قبولاً حسناً ، وأن يلهمني الصواب في القول والعمل .

يوسف العظم

المقدّمة

بقلم الشهيد
الأستاذ سيّد قطب

يسرني أن أقدم هذا الكتاب إلى شباب العالم الإسلامي من قلم شاب تتوقد في روعه شعلة الإيمان ، ويدرك حقيقة الإسلام عقله موشعة بحرارة القلب وحماسة الشباب .

إنه يجلو في كتابه جوانب من الفكرة الإسلامية ، وجوانب من حياة هذه الفكرة في عالم الواقع ، كما يعرض لبعض الحركات الإسلامية الحديثة ، وبعض الشخصيات التي قادت هذه الحركات ، ويجلي الإسلام في هذا كله قوة دافعة عاملة في عالم الضمير وعالم الواقع على السواء .

ولقد عمل الاستعمار الصليبي كما عمل الطغيان طوال قرنين من الزمان على إقامة العزلة بين الدين والحياة ، لأن الاستعمار والطغيان كليهما يدركان جيداً أن هذا الإسلام هو

الخطر الاول على وجودهما ، وساعدهما على هذه العزلة المحترفون من رجال الدين .

ولقد عني صاحب هذا الكتاب بالتفرقة بين الاسلام في حقيقته الناصعة ، والاسلام كما يصوره الطغاة والمحترفون والمستعمرون ، كما عني بتزييف الآراء التي تحاول أن تتخذ من الاسلام مجرد راية سياسية ، لا منهاج حياة كاملة ، يشمل التربية والاخلاق والسلوك في حياة الفرد والجماعة والدولة على السواء .

الواقع أن تجلية هذه الحقيقة الأخيرة أمر لا يقل ضرورة عن تجلية الحقيقة الأولى ، فالدولة في الاسلام ركن لا مفر من وجوده لتحقيق الحياة الاسلامية الكاملة ، ولكن هذا الركن لا يقوم إلا على تربية عميقة ، تتحول إلى سلوك واقعي في حياة الأفراد والجماعات فتدفع بالأفراد والجماعات الى الكفاح الدائم والجهاد الذي لا بد منه في سبيل الوصول الى الدولة الاسلامية ، ثم في سبيل حمايتها مما يكتنفها من عداوات .

وما ينهض بالدولة الاسلامية ويحميها إلا افراد من صنع التربية الاسلامية الصحيحة ، يصمدون للكفاح المرير الشاق الذي لا بد أن يسبق قيامها ؛ ثم يقومون على تطبيق الشريعة

الاسلامية على فقه كامل لها ، وعلى خلق قويم يعصمهم من التلاعب بالفتاوى والأحكام !

إن هذه الباكورة الطيبة لتومىء بأن وراءها جنى أوفر . وفق الله صاحبها الى ما فيه الخير والصلاح .

(حلوان في ٢٥ من ربيع الثاني سنة ١٣٧٣)

سيد قطب

الإهداء

إلى الجندي المجهول في غمرة « زحام الحياة » .

والبطل الأعزل من سلاحها . . إلا من إيمانه بربه . .

والمضحي بما يملك ـ وإن قل ـ ليخرج للحياة شاباً يحمل فكرة يمثلها هذا الكتاب . . ويؤمن بعقيدة تنادي بها هذه السطور . .

إلى أخي في الله . . والروح . . والوالدين : « علي » الذي انتصر على جشع النفس وأنانيتها في القرن العشرين ! أهدي هذا الكتاب . .

طرقة أُولى على باب الحياة . . الرحبة !

وخطوة اولى في طريقها . . الطويل !

ترى متى الوصول الى النهاية ؟

وما عنيت إلا رضوان الله ، وراحة النفس ، وطمأنينة المضغة التي بين جنبي !

أخوك الوفي أبداً

(يوسف العظم)

كلمتي

مسكين . . هذا الكتاب !

كم لقي من لطمات . . قبل أن يسيل على الورق مداداً . . وهو ما زال فكرة في رأس صاحبه ، وهمسة في ضميره ، وخاطرة بين حناياه .

وكم عانى من مصاعب بعد أن تبلورت الفكرة ونضجت لخاطره ، وسالت الهمسة على الورق لتكون هذه السطور .

إني على ثقة من أن كتابي هذا سيلاقي معارضة ونقداً وهجوماً عنيفاً عاصفاً :

من الشيوعي : لأني أخالف فيه خرافة الشيوعية البالية التي تقول بأن الدين أفيون الشعوب . . وأقرر قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ . وإذن فالاسلام

ثورة في وجه كل ظلم مهما كان نوعه سياسة أو اقتصاداً أو ثقافة أو اجتماعاً ، ومن هنا فليس الاسلام العزيز هو الذي يقال عنه « أفيون الشعوب » .

ومن القومي : لأني أفضل فيه ـ في الكتاب ـ الغبار الذي يثيره نعل بلال في سبيل الله على التيجان والعروش كلها فارسيها ورومها وعربيها ، فوق رؤوس المناذرة العرب والغساسنة الأقحاح .

ومن الرجعي : لأني أوضح فيه معنى الاسلام الصحيح الذي لا يعنى بالمظهر بقدر ما يعنى بالمخبر . . وأحمل فيه على الخانعين من الفقهاء والأذلة ممن يسمون أنفسهم (علماء) أو (رجال دين) ، والحكام يظلمون ، والفساق يعبثون ، والشعب يئن ويتعذب . . وما من مغيث . . وما من مجيب !

ومن المنحل : لأني أتعرض فيه للمجتمع الذي يجب أن يكون ، وللحياة التي يجب أن نحياها . . والمجتمع الإسلامي ، والحياة الاسلامية لا يقرهما المنحل بحال من الأحوال .

ومن هواة « النظريات » : الذين لا يؤمنون بالاسلام أكثر من أنه ثقافة تحشى بها الرؤوس فيجردون الاسلام مما فيه من

تبعات فردية ومسؤوليات عظام على الفرد أن يتحملها وأن يطبقها على نفسه قبل أن يدعو الناس الى الاسلام (النظري) الذي سيصفق له الاستعمار طربا لأنه جسم (مادي) لا (روح) فيه ولا حياة . . ثم يقولون : (والاخلاق لا تؤثر في قيام المجتمع بحال) وبأن الدعوة إلى الجهاد لم تحن بعد ولن تحين إلا بعد قيام الدولة الاسلامية ، ويصرون على ألا يستأنفوا الحياة الاسلامية الا بعد أن تقوم الدولة الاسلامية . أما قبل ذلك فليعث الاستعمار في أرضنا ظلماً ، وليعث الشيطان في أنفسنا تحللاً وفساداً ، ويكفينا ما حشرنا به الرؤوس من (الثقافة) و (النظريات) الاسلامية - كما يقولون - ولن تغني عنها أمام الحق شيئاً اذا ما اقتربت الساعة ، ونادى منادي الجهاد .

وإذن : فالكتاب حملة - أرجو الله أن تكون خالصة لوجهه - على افتراء الشيوعية ، وتعنت القومية ، وتحلل أشباه الرجال ، وخنوع الكهان من رجال الدين ، و(سفسطة) المجادلين من أصحاب (النظريات) (والألفاظ) الذين يمزقون الجهود ويوزعون القوى في سبيل تحقيق الحلم الذي يراود نفوسهم من (كراسي) و(مناصب) و(ألقاب) يسمونها « الدولة الاسلامية » .

وعلى هذا فلن تتلقف هذا الكتاب غير الأيدي المسلمة

الكريمة ، ولن تتفتح له غير القلوب المؤمنة النقية الطاهرة .

وواضح كل الوضوح - فيما كتبت - أني إذ أحمل على الكهانة التي لم تكن من الاسلام في يوم من الأيام ، أو أهاجم من ينتسبون لهذا الدين زوراً وبهتاناً ؛ فإنما أعني أول ما أعني تخليص هذا الدين من شوائبه وتطهيره مما علق به من أوضار الشبهات وأدران الخرافة القاتلة . . ثم إبرازه فكرة سامية وعقيدة كريمة من حق المؤمن بها أن يعتز ويفاخر بأن الله ولي الذين آمنوا وأن الله مع المتقين .

أما أن أعرج كما يفعل الموتورون إذ يهاجمون خنوع الفقهاء وذلة العلماء ، ثم يعرجون على الاسلام فيحاولون الطعن فيه مبدأ وفكرة وعقيدة ، غير معترفين به دستوراً للحياة ونظاماً شاملاً ؛ فهذا ما أرجو الله أن يحول بيني وبينه ، وهذا ما أرجو الله ان يكون مني جد بعيد . . لأني أولاً وقبل كل شيء أؤمن بالاسلام دينا ودولة ، عبادة وقيادة ، مصحفاً وسيفاً ، ولكنهم المسلمون الغافلون ، والقرون المظلمة ، والعدوان الصارخ على الاسلام من كل حدب وصوب . . هي التي أظهرت الاسلام بهذا المظهر الذي لا يليق به . . والذي هو منه براء .

ولست أبحث - يوم كتبت هذا الكتاب - عن تأييد مؤيد ، أو أخشى المعارضين فيما يقولون بقدر ما أبحث عن رضا ربي

وطمأنينة نفسي وراحة ضميري . . . أما بعد هذا كله فليؤيد الناس جميعاً أو ليعارضوا جميعاً ، لأن من طلب رضا الناس بغضب الله وكله إليهم ، أو من طلب رضا الله بغضب الناس كفاه الله هذا الغضب . . .

أتراني بلغت ما أريد . . هذا ما أرجوه . . وما هو على الله ببعيد .

القاهرة في ١٥ جمادى الأولى ١٣٧٣ هـ
٢/١/١٩٦٤ م
يوسف العظم

حقيقة الإيمان .. عزة وكرامة

في مجتمعنا الحديث تنطلق أكذوبة ضخمة تنادي بها حناجر ، وتصفق لها أيد ، فتصدقها عقول أي عقول .. وتؤمن بها قلوب أي قلوب .. دون وعي ودون تدبر ..

وهذه الأكذوبة الضخمة قولة قالها « ماركس » علم الشيوعية وقائد ثورتها يوم أعلن الحرب على الأديان السماوية ، وقرر أن يشكك الناس في عقائدهم وأن يحاربهم في أفكارهم ليصدقوا كل ما جاء به ، ويعملوا بدعواه .. رضي العقل أم أبى .. وأقرته طبائع الأشياء .. أم خالفت .. ما دامت الحناجر الجوفاء ، والقلوب الفارغة ، والعقول المخدوعة ، تردد من أعماقها : « الدين أفيون الشعوب » ! ..

ولست بصدد الهجوم على الشيوعية هنا ، أو النقد

لنظريتها ، ولكني بصدد تقرير حقيقة واقعة هي أن الشيوعية يوم أن قررت مثل هذا المبدأ ونادت بمثل هذه العقيدة انما كانت متجنية جائرة . . لم تراع الأمانة العلمية ، والميزان الخلقي إذ أذابت الأديان كلها في بوتقة واحدة وصبتها في قالب واحد لتخرج على الناس مقررة أن الدين أفيون الشعوب . .

ولو تدبر القائلون بهذا قليلاً أو تخلوا عن غرضهم بمقدار لوجدوا أن البون شاسع والفارق بعيد بين الدين الذي لا يقر الذل ولا يرضى بالهوان لمن حمله وآمن به واعتنقه ، وغيره من الاعتقادات التي دعت لإدارة الخد الأيسر[1] بعد الأيمن إذ يصفع بشدة ويلطم بجبروت ، إمعانا في التسامح والمحبة والسلام ! . .

ويوم أكتب في هذا فإنما أعني التفريق بين الأديان من هذه الزاوية فحسب ، لأقرر على ضوء الحقائق الثابتة ـ العقلية والنقلية ـ الفرق الشاسع بين الاسلام وغيره ، ثم لأوضح كيف

---

(١) ورد هذا في الإنجيل الذي بين يدي المسيحيين اليوم على لسان عيسى عليه السلام ؛ وهو الإنجيل الذي يقرؤه الغرب . . ولقد كفر الغرب بالسلام الذي جاء من أجله عيسى ، فما من دواء اليوم غير الذي جاء به طبيب الإنسانية من عند ربه ، الذي يعرف طبائع النفوس ويدرك أسرارها « ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

أن عزة المسلم تنبع من ذله لله ، وكرامته تنبثق من أعماق خضوعه لخالقه .

وإذن . . فالإيمان السليم أول دافع من دوافع الثورة في وجه الظلم والاستبداد وهو الذي إن صحا في قلوب أهله صحت معه أمم واستيقظت به شعوب . فإلى المؤمنين الذين لا يرضون بذل ولا يقرون بخضوع الا لله فاطر السموات والأرض أسوق حديثي هذا ليزيدهم الله إيماناً مع إيمانهم . . وإلى الذين يحسبون الإيمان تمتمات جوفاء وهمهمات خاوية ناسين أن الإيمان في الإسلام ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . . . إلى هؤلاء وهؤلاء أسوق أسطري هذه داعياً الى البحث عن الحقيقة الخالدة التي غمرتها الضغينة وأخفاها الحقد الدفين على الإسلام والمسلمين !

إن المنصف من الباحثين في زوايا التاريخ عن كثير من الحقائق المغفلة ليعجب كم يظلم المؤرخون التاريخ . . وكم يتجنون على الحقيقة عندما يعلنون للملأ أن « الثورة الفرنسية » كانت أول ثورة شعبية أعلنت حقوق الإنسان من حرية وإخاء ومساواة . .

ولو عادوا القهقرى مئات السنين لرأوا أن حقوق الإنسان وضعت ، وأن مبادىء العدالة والمساواة قررها محمد بن عبد الله

صلوات الله وسلامه عليه منذ اليوم الاول الذي هتف فيه في بطحاء مكة : لا إله إلا الله . . .

كلمات أربع . . قد تبدو ضئيلة للعين ، خفيفة على اللسان ولكنها تضم من المبادىء والمعاني والفكر والآراء ما تتضاءل أمامه « حقوق إنسان » فرنسا . . . وما تتلاشى بجانبها مبادىء الثورة الفرنسية التي أعطيت في التاريخ أكثر مما تستحق ، وبولغ في إنصافها مبالغة متعمدة مقصودة كانت سبباً في ظلم مبادىء الانسانية الرفيعة التي جاء بها الاسلام من حرية وإخاء ومساواة . . .

فنفي الأُلوهية ما يتبعها من تعظيم وتقديس وتنزيه عن الخطأ - عن الناس جميعاً - وإثباتها لله وحده تحرير للعقل البشري من أوهامه وضلالاته ، وهو خطوة أولى لتقرير المساواة بين الناس جميعاً في « إنسانيتهم » وفي إمكان ارتكابهم للخطأ وفي النقص الذي لا ينزه عنه مخلوق . . . ثم في الاتجاه كلية الى الله العلي القدير . . .

هذه هي المبادىء الأساسية التي قام عليها الاسلام . . . وهي له بمثابة الأساس المتين للبناء الضخم . . ولم تكن لبنات هذا البناء ، فيما بعد إلا ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ و﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ و﴿ لا فضل لعربي على أعجمي إلا

بالتقوى ﴾ مما جعل الشعوب المظلومة المستعبدة تندفع رغبة لا رهبة ، وطوعاً لا كرهاً معتنقة هذا الدين الجديد لتعيش في ظلال صرحه آمنة مطمئنة يوم أن علمت متيقنة أن محمداً رسول الله وصاحب هذا الدين يقول متواضعاً لرجل هاب الدخول عليه : لست بملك ولا جبار وإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . . .

والتاريخ يحدثنا ـ بالرغم مما يلصقه به المغرضون من المستشرقين ـ أن السيف لم يكن هو الممهد الاول لهذا الدين يوم عم الأرض . . . بل كانت الفكرة . . وكان المبدأ . . وكانت العقيدة . . العقيدة التي تدفع بأصحابها مضحين بكل ما يملكون من عرض الحياة الدنيا في سبيل نشرها ، والفكرة التي تغزو قلوب الجماهير المتعطشة للحرية والعدالة ، والمبدأ الذي يقرر حقوق الانسانية الكريمة من إخاء ومساواة .

وما أظن ـ في رأيي ـ أن للسيف فضلا في فتح فارس يفوق فضل جلسة جلسها (المغيرة بن شعبة) يوم كان على رأس وفد من المسلمين إلى (رستم) قائد الفرس . . تلك الجلسة التي جلسها البدوي (القاسي) ـ الذي ألان الاسلام خلقه في رجولة ورقق طبعه في عزة ـ بجانب رستم وعلى سرير أبهته !

وما كان للصيحات التي انطلقت من كل جانب من جوانب

إيوان جبار فارس لترد هذا البدوي عن مقصده ، أو لتقعده عن غايته ، بل مضى في عزم واستمر في قوة ليستقر بجانب هذا الذي يعبده قومه من دون الله ثم يقرر حقائق دينه ووقائع مبدئه ، « إنا معشر المسلمين سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم ولكنكم دعوتموني . . اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » .

وفتحت فارس منذ أن قال المغيرة كلمته وألقى بقولته الخالدة مقرراً المواد الأولى في دستور قومه الجديد الذي غزا بلاد الشمس والنار والنجوم . . البلاد التي غصت بالعبيد المستضعفين وقل فيها السادة المتجبرون الطغاة بجانب جماهير الكدح والشقاء . . .

انطلقت قولة المغيرة في بلاد فارس تسابق الريح . . وسرت في كل فكر وكل عقل وكل وجدان سريان النار في الهشيم . . .

إنه لدين جدير بأن يتبع ما دام يرفع من قدر المستضعفين ولا

يفرق بين الناس إلا بمقدار ما يؤدون من خدمات كريمة في المجتمع . .

ثم جاء الجيش الاسلامي ليقوم « بفتح البلاد » بعد أن سبقه « فتح القلوب » . . قلوب الجماهير الكادحة ، والشعوب المغلوبة ، والأمة المستعبدة الذليلة . . .

جاء لا ليحارب المستضعفين وإنما ليستخلصهم من بين براثن الظلم ومن تحت سياط العذاب فيكون دعاته شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليهم .

وراح الناس في صلواتهم يسمعون ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ﴾ . . . فيعلمون علم اليقين أن : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

وإذن فلقد فهم (العبد) الفارسي (والمولى) الرومي أنه عند الله أفضل من كسرى وأعز من هرقل ما دام ينطق بالشهادتين ويعطيهما حقهما معنى ولفظاً في القول والعمل من واقع الحياة .

ولم يكن هذا الذي نقوله نظرية تكتب أو مادة تذكر في دستور . . . بل كان منهاجاً عملياً نفذه محمد بن عبد الله

صلوات الله عليه وسلامه ، وطبقه صحبه من بعده منذ أن بشر بلال (الحبشي) بالجنة ، وبشر عمه أبا لهب القرشي الهاشمي بعذاب السعير ! . .

والأمثلة كثيرة لا حصر لها عندما نقرر مبدأ الشورى في الإسلام ، فنرى أن الحق يتبع مهما خفت موازين صاحبه في واقع الحياة التافهة وميزانها الرخيص ، وأن الخطأ يجتنب مهما سمت ـ في نظر بني الدنيا الغرور ـ منزلة المحبذ له ، المصر عليه . . .

وليست خطبة الخليفة الأول أبي بكر ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ إلا مبدأً سليماً وفكرة أساسية كريمة للعمل في سبيل الله وخدمة الأمة التي اؤتُمن عليها وحكم في شؤونها ، وهو إذ يقول : « أطيعوني ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » فإنما ليقرر للافراد جميعاً أن لهم حق الاعتراض عليه والوقوف في طريقه لو انحرف عن كتاب الله وسنة رسوله ، وهما ملك مشاع عام من حق الفرد ـ أي فرد ـ أن يلزم الخليفة بالسير عليهما وبسلوك سبيلهما وألا ينحرف عن طريق الهدى قيد أنملة . . . .

وما هذا الذي نقرر إلا مادة أخرى تضاف إلى مواد الدستور يوم أن نزل ، هي : أن « لا طاعة لمخلوق في معصية

الخالق » ، مما يفسح المجال للفرد الضعيف «العادي» أن يخطىء الخليفة والامام مهما علا قدره لو انحرف عن جادة الصواب ، وهو أمر لا شك يشعر الفرد بقيمته والإنسان بإنسانيته وكرامته . . والشعوب والأمم الكريمة مجموعة من الأفراد الكرماء الأعزة !

طاعة أولي الأمر ومتى تكون واجبة

ومن واجبات المسلم أن (يخلص) للإمام العادل والخليفة الصالح ما دام يهتدي بهدي الله ويستن سنة رسوله : فلا إثم ولا فسوق ولا عصيان . . حتى يكون المسلم واحداً ممن يعنيهم الله بقوله : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » .

وهنا ينشأ المجتمع السليم الذي يحيا الحياة السليمة ـ بعيداً عن الجشع والطمع والأنانية ـ في فلك نظيف ودائرة كريمة ، نقطة الارتكاز فيها ﴿ أنا الله الذي لا إله إلا أنا فأعبدني ﴾ .

وفي تسلسل رتيب يبدأ بالله رب العزة أزلاً وينتهي بالانسان فناء . . نرى أن الله تبارك وتعالى يوجه نبيه بقرآنه ـ كما وجه الانبياء من قبله بكتب منزلة محكمة ـ والنبي يوجه صحابته بسنته

مع الكتاب الكريم ، والصحابة يوجهون الناس بهما معاً ثم يحكمون العقل المؤمن والمنفعة العامة فيما لم يحدد ولم يفصل من تراث الفقه الاسلامي العظيم ، ودستوره المرن الذي جاء ليكون خير دستور لكل زمان ومكان . ثم يجيء بعد هؤلاء جميعاً « الإمام العادل » في « الدولة الاسلامية » فيحكم في الناس بالكتاب والسنة وما أثر عن الصحابة وما يمليه عليه « عقله المؤمن » . .

ومتى انحرف واحد من الخلق عن حلقة من حلقات هذه السلسلة الرتيبة فما هو إلا ممن قال فيهم رب العزة ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ .

ولذا نحن نرى خليفة رسول الله ﷺ ، أبا بكر الصديق رضوان الله عليه يصر على حرب الردة ، وعلى أن يقاتل مانعي الزكاة مخالفاً بذلك رأي غيره من الصحابة لا استبداداً برأيه ، ولا تفضيلاً لتصرفه أو انتصاراً لفكرته - كما يبدو لكثير من المتجنين إذ يقررون أن الاسلام يهمل حكم الشورى في كثير من المواقف ويفضل حكم الفرد المطلق ، مستشهدين بهذه الحادثة - بل تنفيذاً لخطة رسمها رسول الله قبل التحاقه بالرفيق الأعلى يفسرها لنا خليفته رضوان الله عليه إذ يقول « لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه متى استمسك السيف بيدي » .

وعلى هذا نرى أن أبا بكر لم يتصرف تصرفاً جديداً من عنده ، ولم يسلك طريقاً غير الطريق الذي رسمه له رسول الله ﷺ . . ومخالفوه عندما رأوا غير رأيه إنما خالفوا حقيقة واضحة في الاسلام وأساساً بدهياً من أسسه هو « إيتاء الزكاة » . . فكان من حقه أن يخالف رأي الذين ثابوا إلى الصواب أخيراً وأقروا الإمام على رأيه .

ومن هنا نعلم أن رأي « الحاكم » في الإسلام مقيد بما جاء في الكتاب وما رسمته لنا السنة وكذلك الشورى مقيدة بهما ، وليس في هذا مأخذ على الإسلام يأخذه واحد من أبناء هذا العصر ، وهو (أي هذا الواحد من أبناء العصر) يؤمن « بالدساتير » الحديثة التي تقيد أعضاء مجلس « البرلمان » بما جاء بين دفتي الدستور الذي وضعه بشر يخطئون ويصيبون كذلك !

وإذن ليس من حق أحد أن يرى رأياً خاصاً ، وأن يجتهد اجتهاداً من عنده إلا عندما لا يجد « ذلك » مفصلاً في كتاب أو سنة ، وهذا غير ما أقره الرسول عليه السلام عندما سأل معاذاً بن جبل رضي الله عنه يوم أن بعث به قاضياً إلى اليمن : « بم تحكم؟» فيجيب: «بكتاب الله» فيقول له عليه السلام: «فأن لم تجد ؟ » فيقول الصحابي الجليل : « فبسنة رسول الله »فيسأله

الرسول : « فأن لم تجد ؟ » فيجيبه : « اجتهد رأبي » ، فيضرب النبي الكريم صدر صاحبه برفق وحنو قائلاً «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله » .

كما نجد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقع في خلاف مع فريق من الصحابة رضوان الله عليهم يوم أن فتح سواد العراق ؛ يؤيده كل من علي وعثمان، ويخالفه كل من عبد الرحمن بن عوف وبلال بن رباح - العبد الحبشي - في نظر الفرس والروم ومشركي قريش وملة الكفر جميعاً والصحابي الجليل في نظر الاسلام العادل الكريم ، نرى عمر يقع في خلاف طويل ومشكلة معقدة حول تقسيم الأرض المفتوحة بين المجاهدين على اعتبار أنها غنائم .

ويصر أصحاب هذا الرأي على رأيهم مستشهدين بقول الله تعالى : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وآبن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ . .

ويصر عمر على رأيه إذ يرى في ترك الأرض المفتوحة بيد أصحابها مصدراً فياضاً وينبوعاً لا ينضب من المال الذي يشد أزر الجيش الاسلامي ويقوي عضده . . بالإضافة إلى أن في تقسيم هذه الأراضي الشاسعة والحدائق الغناء على الرعيل الأول

والطليعة المجاهدة ما يوكلهم إلى حياة الراحة ، ويسلمهم الى معيشة الرخاء الناعمة بعيدين عن الكفاح الذي خلقوا له وحمل الأمانة التي حملوها والنور ما زال في بدء انبثاقه والفجر في أول إشراقه .

ويجتمع المسلمون للصلاة فيلهم الله عمر في قرارة نفسه أن يقرأ ﴿ وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ .

وهنا يغمر الفاروق محرابه بدموع الحمد والذلة لله الذي هداه إلى الحل السليم والرأي الصائب ، إذ يسند رأيه الذي رأى ويؤيد نظرته التي نظر بـ ﴿ كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ .

ثم يجمع المؤمنين ويوضح لهم معنى الآية الكريمة ، مبيناً أن في تقسيم هذه الأرض الواسعة ما يجعل دولة بين الأغنياء ممن ستصيبهم القسمة وما سيحرم غيرهم من أبناء الأجيال القادمة ممن ذكرهم الله في قوله ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ يوم عدد في سورة الحشر الذين يستحقون مال الفيء . . وكيف ينال أبناء الأجيال القادمة حقهم لو وزعت الأرض على أفراد معينين . . وجماعات مخصوصة . وإذن ففي ترك الأرض

المفتوحة بيد أصحابها ما يعود على الجيش الاسلامي (المجاهد) بالنفع من خيراتها يوم أن يجيء الخراج وتجمع الجزية . . ويؤمن الجميع بصواب فكرة الرجل وصحة نظريته .

وهنا تلتقي مصادر التشريع جميعاً : القرآن والسنة ورأي الخليفة عمر، ورأي الصحابة من الجمهور المعارض ـ من قبل ـ ويكون الإجماع الذي لا فرقة فيه ولا خلاف .

وكما يوجه الإسلام الخليفة توجيهاً سليماً في حكمه للرعية إذ يقول تعالى : ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكُم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ ، ويقول ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ .

نراه يوجه الرعية نفسها هذا التوجيه السليم لكي تنقد تصرفات الإمام وتنبه إلى خطئه ؛ إذ يقول أستاذ البشرية ومرشدها صلوات الله عليه : « إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» .

ثم يعود الإسلام العظيم فيجمع بين عدالة الحكم وسلامة التوجيه وروعة النقد في قول نبيه الكريم : (الدين النصيحة) قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال :(لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم حتى لا يبقى عذر لمعتذر) . .

فالإمام الذي يجور إنما يخالف الاسلام بجوره ويخرج عن حدوده وهو يعلم نتيجة الحاكم الظالم التي وضحها الإسلام في أكثر من آية وأكثر من حديث .

والرعية المتهاونة ملومة إذ تترك الإمام يسير على غير هدى ومعها سلاح لا يفل وقوة تؤمن بها لا تهين أقلها : « إن من اعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » و« لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

وعلى هذا نرى أننا وصلنا إلى بدهية من بدهيات الاسلام العظيم هي : أن طاعة الإمام العادل واجبة ما دام يعلم ويعمل بقوله تعالى ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما انزل الله ﴾ . . وما دام يدرك المعاني السامية لقولة الخليفة الأول رضوان الله عليه . . وما بقيت كلمة أبي حفص عمر ترن على أوتار قلبه وتختلج بين حناياه : (الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم بحد سيفه اعوجاج عمر) . .

* * *

الذين استغلوا الطاعة.. ممسوخة مشوهة

لقد جاء على المسلمين حين من الدهر . . فسر لهم القرآن أعداء القرآن . . من كل نوع :

تلا عليهم الاستبداد قول الله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ . . وأنساهم تتمة الآية ونهاية القول الكريم : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ .

وتلا عليهم الاستعمار قول رب العزة : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ لينسيهم الحقيقة الخالدة التي لا بد للمسلمين من الحياة في ظلالها : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ .

وتلا عليهم اليهود من الكتاب العزيز : ﴿ يا بني إسرائيل

اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأني فضلتكم على العالمين ﴾ وأنسوهم القول الذي يحتم علينا إذلال اليهود ما أرادوا بالإسلام سوءاً وببنيه أذى . . ﴿ ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ﴾ .

وهنا انبرى دعاة الشيوعية من أعداء الاسلام يقولون : إن الإيمان يستعبد أتباعه ، وإن الإسلام يستذل معتنقيه . . وما دروا أنها تلاوات ناقصة لألسنة مغرضة ، وتفسيرات ضالة لقلوب خبيثة قررها رب العزة في الكتاب الكريم منذ أن نزل : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

لقد أساء بعض أولي الأمر ممن قدر لهم أن يتحكموا في مقدرات الأمة الإسلامية في مختلف العصور ، أساءوا استعمال هذه الطاعة وفهموها ـ متعمدين ـ ممسوخة لا كما أمر بها الإسلام ، فرأوا أن من أولى واجبات الرعية طاعة الإمام ، متغاضية عن مدى أحقية هذا الإمام في « الإمامة » . . راضية بما يرتكبه من خطايا وآثام في حق أمته وحق نفسه مما لا يقره الضمير الحي والعقل السليم ، والإسلام أول ما يتعهد العقل السليم بالرعاية ، ويكافىء الضمير الحي بالتكريم .

والخلافة - كما يملي علينا التاريخ - منذ أن بدأت في أول عهد بني أمية وانقلبت فكرتها من الشورى إلى الوراثة واتسمت بطابع الكسروية رسمت صورة ممسوخة عن (الحكم الإسلامي) لا تتفق مع ما لهذا الدين العظيم من روعة وجلال ، وما فيه من عدالة وحرية وكرامة للشعوب التي تؤمن به ، والأمم التي تعتنقه .

. . ويطول بنا الحديث - لو تسلسلنا تسلسلا تاريخياً مع الزمن منذ أن فرض الخليفة على المسلمين فرضاً حتى يومنا هذا - بذكر من لم يكن لهم أدنى حق في الخلافة ممن حكموا في مقدرات الأمة الإسلامية وليس لهم من موازين الحياة أكثر من أنهم ولدوا على سرر وثيرة بين يدي الوصيفات والجواري وفي أفواههم ملاعق من ذهب ! .

ولقد تناسى هؤلاء ومن هم على شاكلتهم جل ما في الكتاب الكريم من أوامر ونواه وأحكام ثم اقتصروا على حفظ آية مسخوا مفهومها وقلبوا معناها وهم يرددون على مسمع من الناس : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ . . معلنين وجوب طاعتهم والإذعان لهم دون أن يرجعوا لما يجب أن يكون في « أولي الأمر » هؤلاء من شروط أولها : الخلق الذي منه العدالة ، وأوضحها العلم الذي منه

طاعة الله . . لتكون طاعة الامام من طاعة ربه . .

ولكن الطغيان عندما يتعامى عن الحق لا يقرأ من الآية إلا أولها . . مؤمناً ببعض الكتاب كافراً ببعضه الآخر . . ومثله في ذلك كمثل من يتلو قول الله عز وعلا ﴿ ويل للمصلين ﴾ ويصر إلا أن يقف عندها لا يتعداها إلى غيرها . . حتى لا يدمغ ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ بما خصوا به من تهديد . . وما صب على رؤوسهم من وعيد . .

إن القرآن الذي ضم بين دفتيه قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ . . هو نفس القرآن الذي يشترط في أولي الأمر هؤلاء . . الشروط التي تخولهم حق ولاية الأمر . . وهو نفس القرآن الذي يقول في نفس الآية : ﴿ فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ . .

وإلى جانب هذا المسخ الواضح لمعاني القرآن الكريم انبعثت أقوال منكرة لفقهاء صنعوا على أعين الطغيان وبين أحضان الاستبداد في عصور حالكة بظلمة البطش والاستبداد والجبروت فقرروا بوحي من الدينار حيناً والسوط حيناً آخر : (أنه لا يجوز عزل الوالي مهما فجر وطغى . . إلا إذا كفر كفراً صريحاً) .

ومثل هذا الحكم لن يكلف الظالمين أكثر من ترديد الشهادتين أو تأدية ركعتين على مرأى ومسمع من الملأ كلما أحسوا بهمس حولهم أو شعروا بأنين المعذبين ينبعث في أسى ومرارة .

ونقلب صفحات التاريخ واحدة واحدة ، ونمر بفترات الزمن فترة تلو أخرى لنجد في أواخر عهد بني أمية من كان يدعو لخلافة الطالبيين مستغلاً عواطف الجماهير وحب الناس لرسول الله صلوات الله عليه وسلامه ولآله . . وقد نسي هؤلاء الدعاة ونسي الناس معهم ما كان ينويه الخليفة الشهيد أبو حفص عمر وهو في اللحظات الأخيرة من عمره عندما قال : (لو كان أبو عبيدة حياً لوليته أمر هذه الامة ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه أمين هذه الأمة) وقولته الأخرى التي قالها : (لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً ما داخلتني فيه الظنون) ، وهو بهذا يعلن للناس جميعاً أن الأمانة والتقوى اللذين هما جزء من الإيمان هما أكرم مقياس يقاس به الرجال حكاماً ومحكومين ، إذ أن ﴿ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وإذن لم يكن الاسلام وهو الدين الذي يساوي نبيه بين الناس جميعاً ـ على قدر إيمانهم ـ ويضعهم في مرتبة واحدة بقوله :

(أنا سابق العرب ، وبلال سابق الحبش ، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق الفرس) . . لم يكن هذا الاسلام لينظر إلى الناس إلا بمنظار التقوى ويرفع بعضهم فوق بعض درجات بمقدار ما يخشون الله ويعملون على إسعاد عباده . . فالخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أبرهم بعياله .

والخليفة الذي لا يسير ضمن هذه الحدود ولا يسلك مثل هذه السبل ، خلافته ـ عند المنصفين الأحرار من فقهاء الأمة ـ باطلة ، وإمامته فاسدة ، وحكمه كما تقول شواهد التاريخ منهار لا محالة مهما حاول فرضه على الناس بالقوة والبطش والجبروت .

وآخر ما عرفناه في عصرنا الحديث من الاستغلال الدنيء لمعاني هذه الآية الكريمة التي توصينا بطاعة أولي الأمر ما نادت به فرقة القاديانية في الهند عندما كانت بريطانيا تسيطر على تلك البلاد ـ شارحة معنى هذه الآية شرحاً يشوه معالم الإيمان الحي الثائر في نفوس أصحابه في وجه الظلم والطغيان ـ مفهمة الناس أن ﴿ أولي الأمر ﴾ المقصودين بهذه الآية الكريمة ، هم حكام الأمة مهما اختلفت ديانتهم وتنوعت غايتهم . . وإذن فلا بد للمسلمين من الإذعان للاستعمار البريطاني الذي قدر له أن يجثم على صدر الأمة الاسلامية حقبة من الزمن . . وأن في شق

عصا الطاعة عليه مخالفة صريحة لأوامر الله ـ كما يقولون ـ إذ يقول ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ . . وما ذاك الولي إلّا بريطانيا الجائرة في تلك الفترة الحالكة القاسية من حياة الهند . .

وتبعاً لذلك أصدر ممسوخو الإيمان مشوهو العقيدة الفتاوى وشرعوا الأحكام بتحريم « الجهاد » مخالفين بذلك قول سيد البشرية :

« الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى يوم القيامة حتى يقاتل آخر أمتي الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل » ، ولم يكن مثل هذا الرأي السقيم مقصوراً على فرقة القاديانية في الهند وحدها وإنما قالت به البهائية في إيران وغيرها يوم أن أنعم على بهائها بلقب « سير » ونيشان « بريخان الأمبراطورية » البريطانية . .

واليوم نسمع نغمة جديدة يرددها فريق من المتسترين بالاسلام هي : أن الجهاد ليس فرضاً على الأفراد ولا على الجماعات ولا على الهيئات . . وإنما فرض على المسلم يوم أن تقوم الدولة الاسلامية . . أما قبل ذلك فلتنعم فرنسا وإنكلترا وهولندا وغيرها من دول البغي في كل بقعة من بقاع العالم الاسلامي الممزق . .

وهي نغمة تبدو في ظاهرها أخف من دعوة القاديانية

والبهائية بترك الجهاد كلية .. ولكنها في الواقع أسوأ أثراً في المجتمع الاسلامي وأشد إضراراً بالأمة الاسلامية .. ذلك أن المسلمين جميعاً ـ أو الأغلبية الساحقة منهم ـ لن تصدق أن الجهاد قد رفع ومنع .. ولكن ما أكثر الذين يصدقون ـ منجرفين مع العاطفة المجنونة ـ أن الجهاد غير مجد وغير نافع إذا ما قام به أفراد .. أو جماعات .. ومن هذه الثغرة يدخل الانهزاميون نفوس الناس ويسيطرون على عقليات الجماهير مستغلين مأساة فلسطين التي يقولون إنها أثبتت صدق نظريتهم .. وما دروا أن الذي فشل في فلسطين ليس المجاهدون بحق أو الفدائيون الصادقون وإنما هي رؤوس سبعة لدول سبع دخلت بخطة منظمة وانسحبت بنفس الخطة المنظمة التي وضعت في لندن .. ونفذت على أرض فلسطين الشهيدة ! .

يا هؤلاء .. يا من تأخذون على « الاخوان المسلمين » أنهم يقدمون شبابهم ـ من الحقل والمصنع والجامعة ـ قرباناً لله وفداء لاعلاء كلمته ودحر المستعمرين عن ديارنا .. وتصرون على أن مثل هذا الجهاد ومثل هذه التضحيات إن هي إلا عبث لا طائل تحته .. سيأتي اليوم الذي ترون فيه أن هذه الوحدات الصغيرة والأفراد القلائل .. والقلوب العامرة بالإيمان المؤمنة بالجهاد قد زحزحت الاستعمار ودقت آخر مسمار في نعشه .. وعندئذ .. فلتقم الدولة الاسلامية طاهرة قوية على أرضنا بعد

أن قامت ضاهرة نقية في صدورنا . . وعندئذ نثبت لكم أن طريقنا هو الطريق السليم ، وأن وسائلنا هي الوسائل النظيفة ، وأن غايتنا هي الله . . . والله وحده .

« إن الذين يزعمون أن الإيمان مخدر للشعوب إنما يتجنون ثلاثاً في آن :

يتجنون على الإسلام ، وهو الذي يقول : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ .

ويتجنون على الحقيقة التي تهدم ما يزعمون حيث لا يجتمع (إيمان) و(خنوع) في قلب مؤمن أبداً .

ويتجنون مرة ثالثة على الإيمان ـ نفسه ـ يوم يزعمون أنه هو الذي يخدر الشعوب ، في حين أن الكثيرين من الطغاة لم يستطيعوا إذلال الأمة الاسلامية إلا بعد أن خدروا إيمانها وجردوها منه بمختلف الأساليب . . ومعنى هذا أنهم أذلوها بغير إيمان واستعبدوها بغير عقيدة ، ولم يقل عاقل في مثل هذه الحالة أن الإيمان هو الذي خدرها وأذلها كما يزعم المبطلون » .

عندما يخدرون الإيمان .. في نفسيّة الشعوب

لقد وطد الطغاة الذين تحكموا في رقاب المسلمين من عباد الله ملكهم مستغلين هذه المعاني الكريمة التي جاء بها الإسلام استغلالاً دنيئاً أساء إليه فيما بعد إساءة بعيدة المدى ، نسمع صداها يردد اليوم في كل مكان يحارب فيه الاسلام - إن سراً ، وإن علناً - حتى أن فريقاً ممن انتسبوا لهذا الدين العظيم زوراً وبهتاناً وليس لهم منه غير أسماء « خالد » و« محمد » و« طه » نراهم يصرون على أن المناداة « بتحكيم الاسلام » في عصرنا الحديث إن هو إلا رأي خرف ونظرية بالية عفى عليها الزمن ، مستشهدين لعدم صلاحية الاسلام لمعالجة شؤون الحياة ولفساد حكمه بظهور كثير من الحكام الظالمين على مسرح هذا الشرق التعس في فترات من الزمن كثيرة ، متباعدة أو متقاربة بين الأمس واليوم . .

وظهور أمثال هؤلاء الطغاة في نظر من أعني من أصحابنا « المفكرين ! » وعدم الوقوف في طريق لذائذهم وشهواتهم أو الحد من ظلمهم وطغيانهم وسكوت « المتفقهين ! » في دينهم على الدنايا التي يرتكبها هؤلاء الفسقة ، إن هو إلا دلالة واضحة على فساد رأي المطالبين بتحكيم القرآن ، على أن الإسلام دين يأخذ بيد الظالم ليظلم والفاسق ليعيث في الأرض فساداً فيستعبد الحاكم الرعية « المتدينة ؟ » وهي نائمة خاملة كسولة لأن الدين أفيون الشعوب . . . وإذن فلا بد من أن يكون الدين في نظر هذه « الببغاوات المتفرنجة » شيئاً . . والسياسة شيئاً آخر !

ولكي تُستبان الحقيقة ويتضح الواقع لا بد لنا من ذكر العوامل التي أدت إلى إقامة صرح الظلم في الشرق المسلم وتثبيت دعائمه ، فأدت بذلك أيضاً إلى أن يفترى على الإسلام وأن يكذب على كتاب الله وهو ما زال فينا خالداً ينير الطريق لمن ضل عن سبيله .

وأول هذه العوامل المخدرة لإيمان الشعوب :

العقول القاصرة ، والقلوب الصدئة ، والضمائر الخربة لفريق من العلماء المنافقين الذين لوثتهم هبات « الظلمة » ودنستهم عطاياهم فحرفوا الكلم عن مواضعه واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، فقلبوا في عقول الناس الظلم عدلاً والباطل حقاً

والفسق والفجور صلاحاً وتقوى .

وليست مهازل « الأمس القريب » التي كان يقوم بها « حامي حمى الإسلام والمسلمين ومعلي كلمة الحق والدين فاروق الأول حفظه الله ! » وسكوت فريق من تنابلة التكايا بل وتأييدهم له ونسبتهم إياه لآل بيت رسول الله إلا صورة صادقة سوداء لما وصل إليه النفاق وبلغه الزور والبهتان بين فريق ممن يدعون أنفسهم « رجال دين » . . حتى على أقدس مقدسات المسلمين وأكرم خلق الله جميعاً . . ولم يكن دور « الصحافة » الخليعة الماجنة « المذبذبة » بأقل من دور « العلماء » الخانعين والفقهاء الأذلة في توطيد أركان الظلم وتثبيت دعائمه .

وما زال « أرشيف » الصحافة المريضة المبعثرة بين أيدينا يغص بما كان يناله (الفاروق) ومن هم على شاكلته ـ قديماً وحديثاً ـ من المدح والثناء في كل خطوة يخطوها نحو الشيطان لهتك عرض أو إراقة دم طاهر ، أو سلب أرض أو اغتصاب حق ، أو هدم بيت أو تقويض أسرة . . . كل هذا كان يطلع على الناس معكوساً ليروا صورة أخرى « للفاروق » الذي يحنو على الرعية ويواسي المرضى ويقيم البيوت وينصف المظلومين ، وهو أولاً وأخيراً . . . حامي حمى الإسلام والمسلمين ! . .

يا لضيعة الإسلام . . . في رجاله . . . ويا لظلم الإسلام

يوم أن يكون أمثال هذا الأرعن العربيد من حماته والعاملين على إقامة صرحه وتشييد بنيانه ليكون عند ، ذوي العقول القاصرة والأغراض الخبيثة ، حجة على الإسلام الحنيف مهما سمت فكرته واتضحت معالم الطريق النير فيه !

ولا بد لي بعد ذكر بعض العلماء والموتورين ودورهم قديماً وحديثاً في إقامة صرح البغي والضلال ، وبعد العرض السريع للصحافة الكاذبة المنافقة كوسيلة حديثة من وسائل الافتراء على الإيمان لإماتته في نفوس أهله ، لا بد لي من ذكر ما كان يقوم مقام الصحافة في العصور الخوالي ويؤدي نفس مهمتها في تخدير إيمان الشعب وإماتة أحاسيسه وحجب الحقائق المرة الأليمة عن أن يسمع بها أو يبصر .

وما عنيت إلا « الشعر الضال المضلل » في شتى صوره وأغراضه الدنيئة ، من مدح كاذب ، وغزل خليع ، وإشراك بالله الواحد القهار بلغ حداً تناسى فيه الشاعر ربه ، وتنكر للنعمة التي أنعم الله بها عليه .

ولم يكن انتشار هذا الشعر ـ الضال المضلل ـ وشيوعه في أوساط الشعب المختلفة ورواجه على « وتر » كل « لسان » إلا نتيجة حتمية للهبات التي كانت تغمر المنافقين من الشعراء ، وتطير بصوابهم عندما يأمر ملك من الملوك أو وال من الولاة

بالخلع فتخلع عليهم ، وبالضياع فيقتطعونها ، وبالجواري فتملك لهم ؛ وقد كانوا قبل أن تحتضنهم قصور « الخلافة » في دمشق وبغداد والقاهرة هائمين على وجوههم فقراً وعدماً وإملاقاً ؛ فكان من نتيجة هذا الإغداق الذي لا حد له ، وهذا التبذير ممن بيدهم المال وهما صورة « علنية » صادقة للمصاريف « السرية » التي كانت تحظى بها الصحافة الماجنة المنافقة منذ أن وجدت ، وقام لها كيان ؛ كان من نتيجة هذا أن نسي الشعراء ربهم ونسوا كل ما يجب أن تقام عليه الحياة الكريمة من أسس خيرة نبيلة ، فانساقوا وراء شياطين الشعر ، وذبلت نفوسهم الأمارة بالسوء تحت إغراء الدينار اللامع البراق أن يشركوا مع الله إلهاً آخر من لحم ودم يخطر بين المغاني والقصور والحدائق الغناء باسم « أمير المؤمنين » . ولو استعرضنا بعض ما قاله أمثال هؤلاء المنافقين - وقد يكونون من أحسن الناس إجادة للشعر ولكنهم أبعد الناس عن الحق - لوجدنا في خزانة الأدب ذخيرة ، أي ذخيرة ، تنطق بنفاق هؤلاء المفسدين ، وتدمغ «الممدوحين» برضاهم عن هذا النفاق وتأييدهم لذلك الكذب الصراح . . .

ولا أرى أنه من السهل حصر كل ما قاله أمثال هؤلاء الشعراء في ملوك تجبروا وطغوا وفسقوا وعصوا - من المدح والثناء - ولكنها لمحات خاطفة أسرد فيها نماذج لبعض ما قاله

« ملوك الشعر » في « ملوك الذهب » الذين كانوا يغمرونهم بالفضل ويجودون عليهم بالإحسان ، والرعية جائعة عارية لا تجد ما تقيم به الأود وما تسد به الرمق .

إنها صفقة خاسرة تشترى فيها الألسن وتباع فيها « الضمائر » دعماً للظلم وأخذاً بيد الجور الذي لا بد أن يزول ما بين طرفة عين وانتباهتها عندما يصحو الإيمان في نفوس أهله ويستيقظ في ضمائر الشعوب .

وأراني أربأ بالكتاب عن أن يضم بين دفتيه « تفاهات » ماجنة داعرة من الغزل السقيم والأدب المكشوف لأمثال أبي نواس في مجونه ، وابن الحجاج في بذاءته ، وابن عمار في تهتكه ، وأقتصر على طرف من نوع واحد من الشعر الكاذب الذي بلغ حد الإشراك والكفران المبين ، وكأن كل همسة من همسات قائله ، وكل خلجة من خلجات نفسه تنطق بالنفاق المبتذل والرياء السقيم والذلة الرخيصة .

ولست أدري ما الذي تركه « ابن هانئ » الأندلسي لرب العزة عندما يخاطب عبداً من عبيد الله بقوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

إنهم يظلمون البلاغة ظلماً قاسياً عندما يعلنون أن هذا

الأسلوب في القول من أساليبها . . . وما كانت البلاغة يوماً أسلوباً غير مؤدب لمخاطبة رب العزة ، أو وسيلة غير كريمة لمدح ملك ظالم يساوى مع الله في الحكم وفي الصفات وفي المشيئة !

وأني لأعجب لهذا « المتنبي » الذي كان يطلق القصيدة فتكون أغنية في فم الزمان حتى يسمع كلماته من به صمم كما يزعم ، كيف يبيح لنفسه أن يقول لرجل لسنا ندري مدى علاقة الشيطان به :

يا من نلوذ من الزمان بظله أبداً ونطرد باسمه إبليسا

وكأنه لا يقر الناس على استعاذتهم بالله من الشيطان وإنما يصر إلا أن يستعيذوا بصاحبه ذاك الذي أغدق عليه الهبات وملأ يديه بالعطايا .

ثم نرى هذا المتنبي نفسه وهو الذي جمع أطراف المجد كله وحاز المكارم بجميع مقوماتها كما يدعي في بيت واحد من شعره :

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

واستهان بخلق الله جميعاً بقول « جاوز حد الإساءة » كما

يقول الثعالبي في يتيمته :

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

هذا المتنبي نفسه نراه يتلاشى فجأة أمام غضبة من غضبات ملك فان ويتضاءل على غير انتظار منه ، ويخضع أمام جبروت سلطان ، يزول بقولة لا يقولها إلا من أنكر الله ونسي ربه وكفر بنعمة وجوده وخلقه والإنعام عليه :

وما راقني بعدكم بلدة ولا اعتضت من رب نعماي رب

إنها مبالغة فاحشة غير مقبولة وممن ؟ من المتنبي الذي يصل به طموحه حد الغرور ، ويدفعه اعتزازه بنفسه إلى درجة الكبر والخيلاء على ما خلق الله وما لم يخلق !

وعلى مثل هذا الكذب البواح وهذا النفاق الصريح بني المجتمع مفكك الأوصال ممزق الجوانب ، لا رابطة تربط أفراده ولا آصرة تجمعهم . . ولم يكن من علاقة بين الحاكم والمحكوم إلا علاقة العبد بسيده ، والغبي الذي لا يدرك من أمر الوجود شيئاً أمام العبقري الذي يدرك كل شيء ، حتى تحولت مفاهيم الحياة في نظر العامة وانقلبت أوضاعهم ، فكان ظلم الحكام حزماً ، وفسقهم مرحاً بريئاً وتحدثاً بنعمة الله ، وخطأهم صواباً

لا تدرك مغزاه العقول السقيمة في الكوخ الحقير والسوق العامة ؟

وإثر هذا الكذب وهذا النفاق وهذا المسخ الواضح لمفاهيم الحياة ، عاث الحاكمون في الأرض فساداً ، فانغمسوا في اللهو والعبث والمجون دون أن يجدوا في طريقهم من يحاسبهم أو يحول بينهم وبين ما يقترفون من خطايا وآثام . . فشاع شعر الغزل السقيم والمجون الفاضح صورة صادقة لما كان عليه العصر، وقامت للأدب المكشوف البذيء دولة ، أي دولة ، كان لها من الخلفاء كل عون ، ومن الوزراء والولاة كل تشجيع ، ومن الشعب الذي يسير على دين ملوكه ، كل إقبال وعشق وتلذذ .

ومع ركب الكذب والنفاق والظلم والطغيان والغزل الفاجر والأدب المكشوف سارت دولة أخرى شامخة بأنفها ـ على ما فيها من خور ومجون ـ فكانت من مقومات حياة التحلل والتهتك إذ ذاك . . تلك هي دولة الجواري والغلمان التي كان لها أكبر الأثر في توجيه سياسة الحكم ورجاله . . من الشرطي الذي يحرس دروب القرية ، إلى الخليفة الذي يتربع في « قصر الخلافة » على سرر الترف والنعيم باسم (أمير المؤمنين) !

وانقلب الإيمان الحق ، ومسخت مفاهيم الإسلام فأصبحت مظاهره لا تعدو خليفة يرفل في أثواب الدمقس

والحرير فوق سرر وثيرة ناعمة ، وعلى رأسه قلنسوة مرصعة باللؤلؤ والماس والياقوت وحوله من الجواري والولدان ، والشعراء والقيان ، والكؤوس والأعواد مما تبتغيه النفس البشرية الآثمة التي تجتنب الجنة المحفوفة بالمكاره وتجنح نحو النار التي حفت بالشهوات !

وإلى جانب هذا كله وزراء وأمراء ، وحاشية وسراة ، وقادة وجند ، وشرطة وخراج ، ودواوين ورسائل ومظاهر للملك فارغة خاوية ميتة لا أثر للحياة الكريمة ، والسلوك النبيل فيها .

أما الرعية ، أما الشعب ، أما الجماهير الكادحة المظلومة فلها من علماء النفاق ووعاظ المسكنة ما يكفيها مؤونة الكلام ، ويحول بينها وبين أن تدلي برأي أو أن ترفع صوتها باستغاثة .

وهنا مات « الإيمان » في نفسية الشعوب المسلمة وتخدرت مفاهيمه بعد أن تعاون عليها السيف بظلمه والدينار بإغرائه ، والكأس بنشوتها ، والجارية اللعوب بتهتكها ، و (تجار الدين) من المحترفين بخنوعهم وتخاذلهم وذلة نفوسهم . . فكانت فرصة للشيوعية اليوم أن تهتف وتقول غير مفرقة بين دين ودين أو ملة وملة : (الدين أفيون الشعوب !) .

وقد نسيت الشيوعية المفترية ونسي كثير من الناس معها أن الذي يرونه اليوم من أوضاع المسلمين أو الذي يردد التاريخ

صداه منذ زمن في عصور التحلل والظلم ليس إلا صورة « مهزوزة » مشوّهة للإسلام رسمها مصور مغرض أثيم .

أما الإسلام الحق والإيمان الصادق فمن نبعه الصافي ينهل ، ومن مصدره العذب يرتشف : من القرآن الكريم والسنة المطهرة والعقل المؤمن السليم . .

إن المسلم بحق . . هو الذي يحمل بين جنبيه قلباً مؤمناً لا يخشى في الله لومة لائم ، وعقلاً نيراً لا تطغى عليه الضلالة ولا يفتنه الهوى . . ولساناً لا يقول إلا الحق إذا ما تحرك في شدق صاحبه !

نحن لا نريد « المسلم » الذي ينسى دنياه من أجل آخرته فيكون عالة على المجتمع بحجة أنه رجل دين وآخرة . . . ولا نريد « المسلم » الذي ينسى آخرته من أجل دنياه فيكون أرضياً تافهاً في عقليته وروحه ووجدانه ، ملحداً في قلبه وعقيدته ومشاعره .

ولكنا نريد « المسلم » الذي يعطي لكل من هذه وتلك حقها . . ليحيا عزيزاً في الدنيا كريماً في الآخرة . . وعندها يدخل الجنة التي ما خلقت إلا لأحرار النفوس والعقول والأرواح . . ويجنب النار التي ما خلقت إلا لعبيد الهوى ، مطايا الشهوات !

كلمتي .. الإيمان في مواقفه المشرفة

ومع ما مر من كذب الشعراء ، ونفاق المحترفين ، ورياء الصحافة وملقها الرخيص فلقد كان في الكفة الأخرى من ميزان الحياة . . أناس على النقيض من دعاة التحلل والكذب والخنوع جميعا يرجحون بكفتهم حيناً أو يحفظون التوازن مع ركب الحكم . . فلا يبغي ملك أرعن ولا يجور سلطان أثيم . .

أما إن أصر الظالم على ظلمه ، وأخذت الآثم عزة باثمه ، في أية فترة من فترات الافتراء على الإيمان والكذب على الاسلام حيث القوى المتخاذلة والأحاسيس «المنحدرة» والايمان السقيم برز له في طليعة الركب وفي مقدمة الموكب رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؛ ممن فهموا عزة المسلم الحقة وكرامة المؤمن الصادقة ليعلنوها حرباً شعواء على كل طاغية

مهما ارتفع به سلطانه وحماه جاهه ، غير مبالين بما يقاسون من مرارة وما يذوقونه من إيلام لأنهم يعلمون علم اليقين : أن في امتداد سيف السلطان الجائر طريقاً يؤدي إلى الجنة . .

إن الواحد منا ليقف خاشعاً في إجلال ورهبة أمام كل موقف من مواقف هؤلاء الأبطال والأفاضل . .

وصفحات التاريخ - مهما اكفهرت بالظلم وأسودت بالطغيان - كثيراً ما تلمع فيها أسطر من نور تشير إلى التقي الورع « سعيد بن جبير » يوم لقي الله طائعاً مختاراً راضياً مرضياً في ظلال سيف الحجاج طاغية بني مروان . .

والتاريخ الأمين يذكر لنا بمزيد من العزة والفخر موقف « عمرو بن عبيد » من أبي جعفر المنصور وهو يعظه وقد تلا عليه ﴿ والفجر وليال عشر ﴾ - إلى أن قال له : إن ربك - يا أبا جعفر - لبالمرصاد . . فبكى أبو جعفر بكاء شديداً ، غير أن الرجل المؤمن يستمر في وعظه حتى تجف عينا الخليفة من البكاء . . وهنا يتدخل النفاق خسيسا ذليلا - شأنه دائما - فيقول « سليمان ابن مجالد » : رفقاً بأمير المؤمنين ، قد اتعبته منذ اليوم ، فيسكته عمرو بقوله : بمثلك ضاع الأمر وانتثر لا أبا لك . . وماذا خفت على أمير المؤمنين أن يبكي من خشية الله ؟ .

ثم يقول له أبو جعفر : قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم

تستعين بها على سفرك وزمانك . فيقول له عمرو : لا حاجة لي بها . . فيحلف المنصور إلا يأخذها ، ويحلف عمرو ألا يأخذها ! وكان المهدي ولد المنصور حاضراً ، فيقول مستنكراً : أيحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟ ! وبغير مبالاة أو اكتراث يسأل عمرو المنصور : من هذا الفتى ؟ فيجيبه : هو ولي العهد ابني المهدي . . وهنا ينطلق الحق من صميم قلب الرجل على لسانه : أما والله لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار ، وسميته باسم ما استحقه ، ومهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه . ويختصر المنصور الحديث وقد آلمه قول الرجل : هل من حاجة ؟ فيجيبه عمرو (المؤمن) : لا تبعث إلي حتى آتيك . وهنا ينفذ صبر المنصور وقد آلمته جرأة عمرو وجرحت كبرياءه فيقول : إذن لا تلقاني . ولا تزيد هذه الإجابة - من الخليفة - عمرواً إلا استخفافاً وعدم مبالاة فيقول : هي حاجتي . . ويمضي فيتبعه المنصور طرفه ، ويقول :

كلكم يمشي رويد كلكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد

وعند خروجه يلقاه أبو أيوب المرياني - وزير المنصور - فيقول له : يا أبا عثمان . . أظنك قد ردعت هذا الرجل ؟ فيقول عمرو : نعم ، فان استطعت أن تعين بخير فافعل ، وكفى بأمة

شرا أن تكون أنت المدبر لأمرها ! . .

مثل كريم من أمثلة الرجولة المؤمنة التي يتلاشى أمامها الجاه ، وتضعف بجانبها القوة ، ويخر عند قدميها المال . . وأسلوب سام من أساليب الرجال توحيه قلوب مؤمنة لألسنة نظيفة فتفرض احترامها على ألد الناس خصاماً لها وأشدهم عداوة وبغضاء . .

وسنة في الخلق عرفناها : أن يكون لدعاة الحق ، أبداً في قلوب خصومهم من الطغاة المستبدين أسمى مكانة وأعلى منزلة ، ولكن العزة بالأثم هي التي تحول دون اعتراف الطغاة بطغيانهم أو تراجع السفاكين عما يقترفون ! . . وسنة أخرى شقيقة لسابقتها وتوأم لها يسجلها ، واقع الحياة في أزمان عدة هي : أن الأذلة ، من ذوي النفوس المريضة ، و(المنافقين) لصاحب الجاه تزدريهم قلوب من يؤيدون وتحتقرهم نفوسهم ، وتشمئز لمرآهم العيون . . أي عيون ، ولكنه الشيطان يحاول أن يضفي على تلامذته ممن يعينون بنفاقهم وخورهم على الشر ويسعون بين الناس بتزيين الآثام أو التغاضي عنها على الأقل ، ثوبا من الرياء جميل المظهر ، زائفاً براقاً لا يلبث أن يبلى أمام عاصفة الحق القوي المتين ويشف عما تحته إذا ما سلط عليه نور العدالة الأبلج المنير . .

وهذه صفحة أخرى نيرة تعلن عن (الامام الممتحن) أحمد ابن حنبل وما لاقاه في سبيل إصراره على رأيه الذي يعتقد أنه الحق ، مخالفاً رأي الخليفة ومن لف لفه من المنافقين الذين يتقربون اليه في محنة (خلق القرآن) التي يقول بها المعتزلة ، ولم تكن السياط بلذعاتها لتزحزح الرجل عن عقيدته التي اعتقد ، والرأي الذي رأى ، ولم تكن المناصب العالية بإغرائها لتحد من إصراره أو تضعف من كلمته الخالدة « إيتوني بشيء من كتاب الله وسنة رسوله » ثم يصمت لتتكلم النسياط على ظهره وتصرخ مزمجرة فوق جنبيه .

والإمام « مالك » يوم أصر على رأيه في فتواه بأن طلاق المكره لا يقع . . ولم يكن هذا الرأي ليلاقي هوى في نفس الخليفة يومذاك ، وليس له شأن بالمكره وطلاقه ولو طلق الرجال نساءهم جميعا . . ولكنه « الغرض السياسي » يحشر أنفه في « فتوى » من فتاوى الأحوال الشخصية ، حتى لا يقال : إن إمامة الامام غير صحيحة ما دام المبايعون مكرهين لا عن طيب خاطر . من ينسى موقف الامام المشرف . . الذي رفع من قدره بين الناس في حياة الفناء بما لاقاه من صنوف العذاب وضروب الاهانة ، وضاعف ثوابه وأدناه درجات من ربه في حياة الخلود ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

أي شيء دفع بالامام إلى أن يصبر ويحتمل الأذى ويقاوم السلطان إن لم يكن الإيمان العميق وما يتبعه من عزة وكرامة واستهانة بالخلق جميعاً إذا ما قيسوا بالله رب العلمين ؟ ! . .

ومن ينسى : أبا حنيفة النعمان يرفض منصب القضاء في الدولة العباسية في أوج عزتها وعظمتها غير متأثر بسوط يلذع أو دينار يلمع . . لأنه يؤمن إيماناً عميقاً أن القضاء قبل أن يكون منصباً يمنحه الخليفة إن هو إلا مهمة جليلة وتكليف له شأنه وله قدره يجب أن يكون بعيداً عن الغرض الخاص ، منزهاً عن الغاية الشخصية . . ومن يضمن لأبي حنيفة إذ ذاك أن يكون حر الرأي في قضائه ، طلق التصرف فيما يحكم به . . ليرضي وجه الله وحده ؟ ! . .

لقد كان أبو حنيفة يخشى أن يتدخل الجاه والسلطان في نزاهة القضاء فتمسخ هيبته ويهلهل قدره . . وليس ببعيد ـ لو رضي الإمام بهذا المنصب إذ ذاك ـ أن يجيء يوم يطلب فيه « أمير المؤمنين » الأمين أن يحكم له ويفتي بجواز شراء الغلمان من شتى أطراف الأرض لتغص بهم حراقاته وقصوره بين أنغام الأوتار ورنين الكؤوس ؟ . .

وما أروعه هاتفاً يهتف من أعماق التاريخ ليذكرنا بعطاء ابن رباح وقد وقف الخليفة هشام بن عبد الملك خلفه يسأله في

بعض الأمور . . وعطاء متجه بكليته نحو أستار الكعبة يدعو ربه ويناجيه في بيته دون أن يلتفت الى ملك الدنيا الفانية . . وإنما يصر على ألا يلتفت اليه ليشعره بذلك أمام مالك الملك وفي أحضان البيت العتيق ويزيد الخليفة فيما يسأل . . ويكثر عطاء فيما يجيب وهو واقف يدعو ربه ويناجي خالقه . . يعجز هشام الذي بيده سلطان الارض يومئذ عن أن يؤاخذ عطاء على موقفه ذاك . . ولكنه يلتفت الى غلامين من ابنائه كانا ويدفع بهما أمامه قائلا : تعلما العلم فلقد رأيتما ذلنا بين يدي هذا العبد الاسود . وما أظنه العلم وحده . . العلم مجرداً عن الإيمان . . العلم بما تحويه الأسفار وما تضمه الكتب هو الذي دفع عطاء لمثل هذا الموقف العظيم . . ولكنه إيمان قلب « عبد مؤمن » وسع الله الكبير المتعال الذي لم تسعه الأرض ولا السماء .

ورحم الله الامام العامل « ابن تيمية » يوم كان في فترة من فترات الظلم المدلهمة التي لفت ديار الاسلام ذي الأجنحة الكسيرة . .

هذا الرجل الذي كان قبساً من أقباس الإيمان يوم توارى تحت حجب كثيفة من ظلم « التتار » ووحشيتهم ، ورشوتهم لكثير ممن يفتون الناس بالباطل ويحرفون الكلم عن مواضعه ويشترون بآيات الله ثمناً قليلا . . نراه يشمر عن «ساعده

المؤمن » ليحارب في عدة جبهات ويصول في عدة ميادين . . يحارب الشرك والزندقة في حلقات الدرس التي كان يعقدها في مسجد « دمشق » الكبير . . ويحارب الفساد والتحلل الخلقي إذ يخرج وفريقاً من أصحابه ثائراً لله وفي سبيله فلا يترك حانة في دمشق أو خمارة يأوي إليها شياطين الإنس والجان إلا وتنال من أذاه ومن بطشه . . ثم يناهض أعيان البلاد المتهاونين في حق بلادهم ، المتعاونين مع الغاصب الدخيل ، ويقرعهم ويبين لهم الجريمة التي ارتكبوها والإثم الذي أثموه، فيعود منهم من يعود إلى كتيبة الاسلام في الصف المجاهد ، ويصر منهم من يصر على خيانته فيبوء بغضب من الله وملائكته والناس أجمعين .

ثم يتفرغ بعد هذا كله لحرب التتار يطوف بنفسه على كتائب الجيش وجموع المرابطين متنقلاً من حصن إلى حصن ومن قلعة الى قلعة ، يذكرهم بجزاء الصابرين ومثوبة المجاهدين وعاقبة المتقين . . هذا الرجل بأعظم ما في الرجولة من معنى ، العامل بأسمى ما في العلم من دلالة . . جعل من نفسه يوم أن ادلهم الخطب مسؤولاً عما كان يحدق بالمسلمين من خطر وما يحيق بهم من مكر فنظم من نفسه :

مناظراً : يوقف الزنادقة عند حدهم .

مفاوضاً : يفاوض من يخرج من المسلمين إلى أحضان

أعداء الله ليردهم إلى كتيبة الجهاد وأسرة الإسلام الكبرى .

آمراً : بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، يحارب المنكر بكل ما أوتي من قوة ليخلص البلد مما به من تحلل له أكبر الأثر في تحطيم نفسية الشعوب .

واعظاً أكبر : يحض على الجهاد والتضحية في سبيل الله مشترطا على من يريد العمل في هذا السبيل أن يفقه سورتي « التوبة » و« الأنفال » حفظاً وتفسيراً ولا يرسل به إلى الميدان إلا بعد أن يتأكد من ذلك ليكون فاهماً لكل دقيقة من دقائق الجهاد وكل معنى من معانيه .

ثم جندياً : باسلاً لا يتوانى عن الجهاد بحجة أنه من « رجال الدين » بل يصر إلا أن يتعلم الفقهاء الرماية ومختلف ضروب القتال حتى يكونوا حماة لدينهم كماة يذودون عن أوطانهم ، وبالتالي لقد كان « ابن تيمية » مسلماً فاهماً لحقيقة إسلامه ، فلم يؤمن ببعض الكتاب ليكون « عالماً فقيهاً » ويكفر ببعضه الآخر ليترك السياسة « لأصحابها » يعيثون في الأرض ظلماً ويبغون فيها فساداً .

لقد كان يعلم أن ليس الرجل برجل الدنيا ولا برجل الآخرة ، وإنما برجليهما معاً . . فكان مثلاً حياً ونموذجاً صادقاً

للمؤمن الذي يحمل الكتاب بيد لينشر العدل .. والسيف بالأخرى ليمحق الظلم .. فلا يخشى في الله لومة لائم ..

ولنطو هذه الصفحة الكريمة في ضمير الغيب .. ولتبدأ صفحة أخرى مشرقة بنورها ، ذكية بعبيرها ، سطرها في سفر الخلود وبين حنايا التاريخ « شيخ الإسلام والمسلمين ، وأحد الأئمة الأعلام. .سلطان العلماء .. إمـام عصره ، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. عز الدين بن عبد السلام »[1] .

لقد قالها كلمة حق فكانت خالدة بحق : « إن نصرة الدين وتبصرة المنحرفين عن حقوق الوطن أمانة في عنق العلماء » .. وما قولته هذه الا كالمذكرة التفسيرية للقانون الذي وضعه سيد البشرية صلوات الله عليه وسلامه ..

« كلكم راع وكلّكـم مسؤ ول عن رعيته » .. ولم يقل العز بهذا ويتخلى عن تحقيق قولته لحظة واحدة من لحظات حياته التي أفناها آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر فكان بحق : « سلطان العلماء » ..

لم يتهاون يوماً في حقوق الأمة الاسلامية أو يتغاضى عن

---

(١) طبقات الشافعية .

الخطايا التي يرتكبها « الملوك » الذين قدر لهم ان يحكموا « الشرق الاسلامي » في تلك الآونة الحالكة من تاريخ أمتنا ، فنراه ينكر على « الصالح اسماعيل » صاحب دمشق استعانته بالصليبيين ، وإعطاءه لهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف ، ثم يصر إلا أن يترك الدعاء له في الخطبة وأن يحذف إسمه من على المنابر ، يؤيده في ذلك الكرام من فقهاء الامة وعلمائها وعلى رأسهم يومذاك « أبو عمرو بن الحاجب المالكي » مما يغضب السلطان ويثير حفيظته فيأمر بهما فيخرجان إلى الديار المصرية ، وهو أمل طالما أشرق في نفس الرجل ليستنهض همة صاحب مصر « الصالح أيوب » لحرب صاحب دمشق « الصالح اسماعيل » ومن يعينه من الصليبيين على قومه من « بني الاسلام » ، ويمر « العز » بمدينة الكرك .. ويتلقاه صاحبها بالترحاب ، ويبدي له الرغبة الملحة في أن يبقى لديه في مدينته عزيز الجانب في ظلال من الرعاية والتكريم ..

ولكن همة الرجل تعلو عما بدا لصاحب لكرك أو تصوره فلقد كان « العز » طموحاً لا في جاه الدنيا وزخرفها ؛ وإنما في أن تكون الهداية على يديه لأكبر عدد من المسلمين ، وأن يكون أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر منصباً على رؤوس أعظم حكام المسلمين في عصره ذاك وأكثرهم أبهة وجاهاً وترفاً ، وأين يكون الجاه والأبهة والترف إن لم تكن كلها مجتمعة للصالح أيوب

وزوجه شجرة الدر أم خليل المعتصمية . ؟ ! كل هذا دفع الرجل الى أن يقول لصاحب الكرك الذي أراد أن يستأثر به : إن بلدك صغير على علمي . ويتجه الى القاهرة فيتلقاه صاحبها بالتكريم والحفاوة . . ويوليه خطابة جامع عمرو بن العاص ثم يوليه القضاء مما ينزل عز الدين برجولته وعلمه وإيمانه منزلة يحسده عليها كثير من « علماء التكايا » وحملة الكتب ، الذين راحوا يكيدون له وهو بهم لا يكترث ولحسدهم لا يأبه ، وإنما يظل كالصخرة في رجولته ، كالمنبع الفياض في علمه ، كالغيث للأرض الجدباء في إيمان قلبه الكبير وعقله المنير . .

إن الباحث في ضمير التاريخ ليخفض الرأس إجلالاً وتكرمة للعز بن عبد السلام في كل موقف من مواقفه المشرفة ، وكل تصرف من تصرفاته الكريمة ، وإن الصفحات ـ على اتساعها ـ لتضيق ، والأسطر لتعجز عن أن توفي الرجل حقه من المدح والثناء .

طلع الملك الصالح أيوب « صاحب مصر » وزوجه شجرة الدر في أبهة وحفاوة ، وقد التف حوله الأمراء والحكام ورجال الجيش وسراة الحاشية ، وقد أقبل الناس عليه يقبلون الأرض بين يديه ويحنون له الهامات ويطأطئون الرؤوس في مواكب الذلة والخضوع . . . فخرج له « العز » المؤمن يشق نحوه

الجموع ويزجي الصفوف ليهتف في وجهه والجميع يستمع لما يقول في قوة وعزم : « لم تباع الخمور في عهدك وأنت ساهٍ لاهٍ في هذه الأبهة وهذا النعيم ؟ » .

وما كان للسلطان ـ وقد واجهه الحق والعلم والإيمان متمثلة في روح هذا الرجل ـ إلا أن يعتذر في رفق وأن يجيب في لين : « أنا ما علمت هذا . . لعله من زمان أبي . . » .

ولكن العز الذي لم يكن غلق الخمارة يعييه وحده ، يعيد قولة أشد مضاء من سابقتها وألذع ميسماً : « ما زدت عن كونك من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة » .

فيرسم السلطان بإبطال تلك الخمارة . .

ويعود الشيخ من عند السلطان وهو أشد قوة بإيمانه وأعظم عزة بربه ، فيسأله رجل من خاصته ممن أدهشتهم جرأة الشيخ في الحق وإصراره على تقريع السلطان أمام هذه الجموع : كيف الحال ؟

فيجيبه الشيخ المؤمن بكلمات تشرح غايته وتوضح مقصده من تقريع السلطان ومن إعلان قول الحق في وجهه على هذه الصورة : يا بني . . رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه .

وتزيد هذه الإجابة من دهشة السائل فيعود يسأل: أما خفته؟

وتنساب الرجولة بأجلى معانيها وينطلق الإيمان بأروع مفاهيمه على لسان الشيخ: والله يا بني .. لقد استحضرت هيبة الله تعالى .. فصار السلطان أمامي كالقط الصغير ...

ومن ينسى للشيخ فتواه التي كانت أشبه بقاعدة عامة من قواعد الدستور حبذا لو استنارت بها الأمة الإسلامية في كثير من عهودها المظلمة، يوم أن أعلن الملك المظفر رغبته في تقوية جيشه في مصر لحرب التتار، ولم يكن ما في خزانة الدولة ليكفي ذلك الإعداد وتلك التهيئة .. فاستشار الملك المظفر فريقاً من العلماء في وجوب فرض ضريبة على «العامة» حتى يقوى ساعد الجيش ويشتد بأسه ليرد عن البلاد التتار وشرهم المستطير.

وجبُن العلماء يومئذ عن أن يجيبوا بنفي أو إيجاب، إذ كانوا يعلمون حرج الموقف ودقة الوضع بين غضب السلطان وثورة العامة وفي كلا الأمرين زعزعة لمركزهم في مجالس الحكام أو صفوف العامة.

ونسي العلماء طرفاً ثالثاً في القضية ... هو في الواقع الطرف الأول في كل قضية من قضايانا وكل مشكلة من مشاكلنا يجب أن نهرع إليه.

نسوا الله فأنساهم أنفسهم وهو الذي لا يهمه غضب السلطان أو ثورة العامة ما دامت الفتوى في سبيله والرأي بجانب إعلاء كلمته .

ولكن « عز الدين بن عبد السلام » ـ سلطان العلماء ـ أعلنها صريحة مدوية هزت جوانب مجلس العلماء ذاك وزلزلت أركان كراسي الحكم في مصر يومئذ . . أعلن فتواه بوجوب أخذ أموال الأمراء والحكام حتى يتساووا مع « العامة » في مأكلهم ومشربهم وملبسهم وطرق معيشتهم ، ثم ليؤخذ من العامة ما يؤخذ يوم لا تكفي أموال الأمراء والحكام ولا تفي بالغرض .

ولم يكن العز يبغي من وراء فتواه هذه ـ في صالح العامة ـ كسباً رخيصاً أو ذكراً حميداً إذ يغضب السلطان والأمراء جميعاً ويرضي العامة والسوقة من أبناء الشعب . بقدر ما كان يبحث عن رضا الله وطمأنينة النفس المؤمنة التي بين جنبيه . . .

وهنا يتضاءل العلماء « الأقزام ! » أمام هذا العملاق الضخم في رجولته وعقيدته وإيمانه . . ويثور الأمراء في وجهه ويعترضون طريقه ، ولكنه يصر عليها ، كلمة حق أراد بها وجه الله وحده . . مما يدفع الملك المظفر إلى أن يقر رأيه ويدنو منه ، يقبل رأسه والدموع تجول في عينيه ليقول : «بارك الله لنا

ولمصر فيك . . إن الإسلام ليفخر بعالم مثلك لا يخشى في الحق لومة لائم » .

ومما يدل على منزلة الشيخ الرفيعة بإيمانه ، العزيزة بإسلامه عند العامة من الناس والخاصة من الملوك والحكام . . أن الملك الظاهر بيبرس لم يبايع أحداً من الخليفتين المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدمه الشيخ عز الدين للمبايعة ثم تبعه السلطان بعد ذلك . .

وإنه لاعتراف صادق وكلمة صريحة تلك التي قالها الملك الظاهر لبعض خواصه يوم أن مرت بهم جنازة سلطان العلماء تحت القلعة ورأى كثرة الخلق معها : « اليوم استقر أمري في الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك مني ! » .

إنها قولة صادقة تدل دلالة واضحة على الأثر الذي يتركه الإيمان ـ ولو عند رجل واحد ـ في ضمائر الأمم ونفسيات الشعوب ! .

وندنو من عصرنا الحديث رويداً . . فإذا بنا أمام رجل فذ قاد الجماهير بأمانة وإخلاص ، ووجه الأمة وجهة سليمة نحو الخير ، ذلك هو السيد عمر مكرم شيخ علماء الأزهر ـ يوم كان الأزهر عزيزاً لا يعرف الذلة ، كريماً لا يعرف الهوان ـ هذا

الرجل وقف موقفه المشهور في وجه المماليك وأصر إلا أن يختار الشعب المصري حاكمه بنفسه فكانت النتيجة أن قام الرجل العظيم ممثلاً للشعب بمبايعة «محمد علي» والياً على مصر، ولأول مرة في تاريخ مصر يعين وال بإرادة الشعب . . أو إرادة الطبقة المثقفة الواعية . ولم يمنع تأييد السيد عمر مكرم لمحمد علي في أول عهده أن يقف في طريقه فيما بعد يوم أن رأى انحرافه عن الطريق السوي ، مما دفع الوالي الجاحد أن ينفي الرجل من القاهرة إلى الريف ويحكم عليه في « دمياط » بالسجن المؤبد .

وهكذا جازى « محمد علي » الرجل الذي ولاه باسم الشعب ، هذا الجزاء الذي لا يختلف في شيء عن جزاء سنمار .

ثم يأتي شريد وطنه وطريد قومه ـ وأعني بالوطن رقعة الإسلام مهما اتسعت ، وأعني بالقوم كل من هتف مؤمناً بالشهادتين ـ وما هذا الشريد الطريد سوى الأفغاني العظيم الذي عرف كرامته كمؤمن وأدرك عزته كمسلم فعمل على أن يكون لكل مسلم كرامة وسعى لأن يكون لكل مؤمن عزة مستنهضاً الهمم ، موحداً الجهود ، راح الاستعمار يطارده أينما اتجه وحيثما حل .

إن كلمتين اثنتين قالهما الفيلسوف الحكيم لتدلان دلالة واضحة على مدى استهانة الرجل بالدنيا الفانية وزخرفها الزائف ، ومجدها الذي يزول ؛ وتعطيان فكرة صادقة عما كان يختلج في نفس الرجل من نزعات الخير الحق والإيمان السليم .

إحداهما قالها لرجال السلطان في تركيا يوم أن حملوا إليه نبأ إنعام السلطان عليه - ليشتري صمته - برتبة « قاضي عسكري » ، وما تقتضيه من الحلل المذهبة الزاهية . . : « قولوا لمولاكم السلطان ، إن جمال الدين يرى أن رتبة العلم هي أعلى الرتب ، ثم قولوا له إنني لا أستطيع أن أكون مثل البغل (المزركش) » .

والثانية قالها لمن سأله يوم هبط تركيا من إيران عن صندوق متاعه :

« أما صندوقِ الكتب فها هنا - مشيراً إلى صدره - وأما صندوق الثياب فهذه - مشيراً إلى جبته - » .

ثم قال : « كنت أول عهدي بالنفي أستصحب جبة ثانية وسراويل ولكن لما توالى النفي صرت أستثقل الجبة الثانية فأترك التي علي إلى أن تخلق فأستبدلها بغيرها » .

ولي عود لأتحدث في شيء من التفصيل ، عن هذا الرجل المؤمن بكرامته المعتز بإسلامه في فصل آخر خصصته به .

هذه نماذج حية في عرض سريع لرجال عمر الإيمان قلوبهم فلم يأبهوا بجاه أو يرضخوا لجبروت وإنما كافحوا الطغيان في أوج بطشه وحاربوا الجبروت في عنفوانه ، وليس لهم من سلاح إلا عزيمة في مضاء السيف وإيمان يهد الجبال وعقل نير يبدد الظلم والظلمة مهما اكفهر وجه الزمن . .

أما اليوم « فرجال الدين » إن رضينا بهذه التسمية أو اعترفنا بوجود طبقة خاصة من هذا النوع في الإسلام فهم أربعة :

١ ـ رجل[١] لم يفهم من رسالة محمد صلوات الله عليه وسلامه إلا قشورها ولم يدرك منها غير شبهات حطت بها القرون والأجيال والظلم والطغيان حول الفكرة الخالدة ، فهو لا يؤمن بغير المسبحة واللحية والعمامة إن اعتدل ، أو الطبل الأجوف والأعلام الممزقة ـ إن انحدر ـ متناسياً أن الله لا ينظر إلى صورنا وإنما إلى قلوبنا ؛ وهذا يصوم ويصلي ، ولا يشرب الخمر أو

---

(١) هذه الفقرات مهداة إلى « رجل الدين » الذي نسب (فاروق) الذي طغى وبغى ، وفسق وفجر ، إلى أكرم نسب وأطهر محتد . . إلى نسب الرسول الكريم ، والنبي العظيم ! . .

يلعب الميسر ولكنه بمعزل عن الحياة وعن عباد الله الذين يتوقعون خيره وينتظرون عمله ويتعطشون لعلمه الذي تعلم .

٢ - ورجل لا يهمه[١] من أمر الدين أكثر من أن يكون مطية ذلولاً للاستعمار ، وعبداً طيعاً لأعداء الإسلام ؛ وهذا يصوم ويصلي رياء الناس ، ويخون أمته ويبيع دينه مخفياً عن الناس حقيقته مبطّناً عن الملأ أمره .

٣ - ورجل اتخذته الشيوعية[٢] أو الإلحاد أو الإباحية أو الإقليمية الضيقة ، أو سم ما شئت من الأفكار الضالة المضللة سلماً يرتقون عليه ويصلون به لما يريدون . . فهو دعي غبي ، دعي يدعي التقدمية وهو رجعي في كل شيء . . حتى في دعوته لحياة الغاب المنحلة ومجتمع الانسان الأول . . وغبي لأنه يحسب أن هؤلاء الذين يتعاون معهم وينفذ مآربهم ، يحترمون رأيه ويقدرون موقفه ، وما دري أنهم يزدرونه أول من يزدرون ،

---

(١) أما هذه فمهداة إلى « رجل الدين » الذي قال يوم أن سئل عما يراه أقرب إلى حكم الإسلام الجمهورية أم الملكية ؟ . . جبن عن أن يقول الحق وأن ينطق بما يعلم فقال : أنا رجل دين لا دخل لي في أمور السياسة ! . .

(٢) وهذه مهداة إلى (رجل الدين) الذي هو « من العلماء » وقال في « ستالين » يوم أن مات في وقاحة وعدم حياء « طبت حياً وميتاً أيها الرفيق ! » . . نفس الكلمات التي رددها أبو بكر الصديق رضوان الله عليه وهو يتطلع إلى وجه حبيبه المصطفى وقد التحق بالرفيق الأعلى : « طبت حياً وميتاً يا رسول الله » .

ويحتقرونه أول من يحتقرون .

٤ ـ ولكن العالم الفقيه والمؤمن الحق الذي يمثل المؤمنين بحق ـ وقليل ما هم ـ هو الذي يدعو لدين الله فكرة وتشريعاً وعقيدة . . فلا يخشى أن يوصم بالرجعية فيغمره الإلحاد وتجرفه الإباحية ، أو يتهم بالتعصب ! فينساق مع ديمقراطية الغرب الرخيصة الزائفة .

إن المسلم بحق . . هو الذي يحمل بين جنبيه قلباً مؤمناً لا يخشى في الله لومة لائم ، وعقلاً نيراً لا تطغى عليه الضلالة ولا يفتنه الهوى . . ولساناً لا يقول إلا الحق إذا ما تحرك في شدق صاحبه .

نحن لا نريد « المسلم » الذي ينسى دنياه من أجل آخرته ، فيكون عالة على المجتمع بحجة أنه رجل دين وآخرة . . ولا نريد « المسلم » الذي ينسى آخرته من أجل دنياه فيكون أرضياً تافهاً في عقليته وروحه ووجدانه ، ملحداً في قلبه وعقيدته ومشاعره .

ولكنا نريد «المسلم» الذي يعطي لكل من هذه وتلك حقّهما ، ليحيا عزيزاً في الدنيا كريماً في الآخرة . وعندها يدخل الجنة التي ما خلقت إلا لأحرار النفوس والعقول والأرواح ، ويجنب النار التي ما خلقت إلا لعبيد الهوى ، مطايا الشهوات .

وهكذا نجد أن « جوهرة » الإيمان الكريم وعزته الخالدة ما كانت لتظل مغمورة تحت هذه الأكوام المتراكمة من المفاهيم الخاطئة لدين الله أو لتكون مختبئة في أخاديد سحيقة من الاستغلال أو تحت ستار كثيف من الهبات والعطايا متمثلاً في قصيدة يقولها شاعر ماجن أفاق أو مقالة يكتبها « أديب ! » مأفون .

وإنما كان النور الصادق لهذه الجوهرة الكريمة ينطلق مخترقاً كثيراً من حجب الاغراء والبطش والضلال ، متخطياً كثيراً من ظلم الفتنة والغواية ليسطر بأحرف من نور على جبهات كثيرة من فترات الزمن الحالكة في حياة الأمم : أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

ويستجيب فريق من الدعاة لهذه الدعوة . . ويلبي كثير من الخيرين هذا النداء فتكون صحوة بعد إغفاءة ونهضة بعد كبوة ، وحياة وحركة بعد موت وسكون عميق .

ثم تعود حجب الظلام لتزيد من تراكمها وتعود ستائر الشر لتسدل مرة أخرى على الإيمان بمفهومه السليم ومعانيه السامية إلى أن ينصر الله فئة الخير الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر فيمن على المستضعفين في الأرض ، ويجلعهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكن لهم في الأرض .

﴿ ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ﴾ .

إنما مثل الذين يحاولون الفصل بين الدين والدولة ويسعون للحيلولة بين الاسلام والحكم كمثل من يحطم للطائر قوادمه ويقص منه الجناحين ثم يعوضه ـ مخادعة ومخاتلة ـ عما سلبه قوادم من فضة وجناحين من ذهب !

والطائر ـ بفطرته وطبعه ـ لن يحلق بغير جناحيه الطبيعيين اللذين متعاه بالحياة وأسعداه بالانطلاق والحرية .

وهكذا حال الأمة الإسلامية ـ ذات الطابع النظيف الخاص بها والتقاليد الكريمة الطاهرة ـ لن يجدي معها دستور الغرب المنحل ، ولن تنفعها شرائعه الدخيلة . . إلا اذا درج الطائر « الحي » كما قلت على قوادم من فضة ، أو حلق بجناحين من ذهب !

إنها أمة مؤمنة لن ترضى بغير الدستور الذي وضعه العليم ـ بخلجات النفوس ، الخبير بأنتفاضات الأفئدة ـ ثم بشر به أستاذ البشرية عليه أفضل الصلاة والسلام .

الحيلولة بين الإيمان والحكم..
أو.. فصل الدين عن الدولة

لم يعرف التاريخ على التحديد الفترة التي فكر فيها في الحيلولة بين الايمان والحكم لفصل الدين الإسلامي العظيم عن الدولة وقصره على ناحية (التعبد) التي هي جزء من الاسلام العظيم الشامل (لمختلف شؤون الحياتين) الدنيا والآخرة بل قصره على مظاهر العبادة التي أصبحت في صورتها الواقعة اليوم نوعا من الطقوس الخالية من كل روح وهي على هذا ليست من الاسلام في شيء ،ولكن محاولات كثيرة جرت منذ بدأت خلافة بني أمية ـ أو مملكتهم على الأصح ـ كانت ترمي الى أن يتصرف الخليفة بحرية مطلقة لا يوقفه عند خطئه أحد ولا يعارضه فيما يصنع انسان ، لما يفترضونه ولو زوراً في أمثال يزيد والوليد بن يزيد من حكمة واجتهاد وكفاءة وعدل ، وقلما يخطىء أو يسيء

من توفرت فيه هذه الشروط ولو على سبيل الافتراض الكاذب والتصور الخداع .

والتاريخ الأمين يشير ببنان ضخم و« سهم » عريض نحو كثير ممن أنتهكوا حرمة الدين وكفروا بأنعم الله وهم يتربعون على « دست » الحكم باسم الاسلام والمسلمين . . والذي نقرره حول هذه المحاولات هو عين الفكرة الشائعة اليوم باسم « فصل الدين عن الدولة » وهي وإن لم تكن كالصورة التي نعرفها اليوم جميعاً . . ولكنها ـ أن لم تزد عليها جرماً وبشاعة ـ فهي مساوية لها على الأقل .

أما الذين قاموا بمثل تلك المحاولات فهم ـ وإن كانوا لا يصرحون بوجوب فصل الدين عن الدولة بل يقولون بوجوب تحكيم الإسلام ـ إلا أنهم يتفقون مع المطالبين بالفصل في أن يظل الحاكم بعيداً عن روح الإسلام وسيطرته عليه ، لا وازع يزعه من كتاب أو سنة أو آمر بمعروف أو ناه عن منكر . .

ولذا فهم يشترطون لكي يكون الإسلام ديناً للدولة شروطاً ليست من الإسلام في شيء ، أقلها أن يكون هذا الإسلام الذي يدينون به ويحكمون بحكمه إسلاماً خاصاً كما يفهمونه لا كما أنزله الله وكما يفهمه المسلمون بحق . . ولذا فهم لا يبيحون

للأمة بوجه عام وللعلماء خاصة أن ينقدوا تصرفاتهم أو أن يوقفوهم عند حدهم لأن الخلفاء أنفسهم كما يقولون ، من أمثال يزيد بن معاوية والأمين بن الرشيد رجال علم واجتهاد ودراية . . وهم إذن رجال دين ودولة فلا مجال لأن يتدخل في شؤونهم عالم أو أن ينصحهم مؤمن آخر وهم أنفسهم ـ كما يزعمون ـ أهل « العلم والتقوى والسياسة والحكم » .

وإذن فالفكرة هي الفكرة ـ ما لقيصر لقيصر وما لله لله ـ ولكنها في صورة أخرى ظاهرها الرحمة ، وباطنها مسخ لحقائق الإيمان ، وهدم لمعالم الإسلام من أصولها . .

أما الفكرة الواضحة اليوم بيننا ، والخرافة التي تلزم من تفقه في الدين ألا يفقه من السياسة شيئاً وأن يكون من طبقة خاصة يطلقون عليها اسم « رجال الدين » وتفرض على رجل السياسة ألا يتعرض للدين إلا بينه وبين نفسه ـ صادقاً أو غير صادق ـ في حدود جدران المسجد أو البيت دون أن يكون لهذا الدين أي مساس في حياة الأمة أو أي تأثير على إدارة دفة الحكم وتصريف شؤون الدولة . . أقول : إن هذه الفكرة جائرة يوم وضعت متجنية ، يوم طبقت ، وقد وصلتنا ـ شأن كثير من الأفكار الضالة المضللة ـ من أوربا يوم كانت سادرة في غيها ، تائهة في ظلمة الجهل ، حائرة لا تدري من أمر الحياة شيئاً .

والفكرة كانت قائمة في أوربا قبل أن تدمغ بها الشرق الذي جثا على ركبتيه وخر ساجداً عند قدمي الغرب يقلده في شره قبل خيره ، وفي رذيلته قبل فضيلته ، تحققها الكنيسة من جهة والدولة التي تدين للكنيسة بسلطانها الروحي والكهنوتي وبما لهما من مظاهر وطقوس . . . من جهة أخرى ! . .

وكثيراً ما كان يتحد الملوك مع رجال الدين في أوربا وتعقد بينهم معاهدات الصداقة التي فيها نفع للطرفين ، وما على رجال الدين إلا أن يخدروا الجماهير ويعرقلوا حركة النهضة ويؤثروا في تطور الأمم ورقيها ووعيها ، تأثيراً سيئاً ويعوق حركات الإصلاح فيها . . مما يدفع الجماهير متأثرة بدعوى رجال الكنيسة إلى أن تترك أمور السياسة لأهلها ، وشؤون الحكم « لذويه » ؛ وهي بذلك تؤيد الكنيسة فيما تقول به من آراء وتطيع رجالها فيما يوجهونه من إيحاءات خاصة معينة . .

فإذا ما قويت سلطة الكنيسة واشتد بأسها تبعاً لتأييد الجماهير خشي الملوك شوكة رجال الدين « الأكليروس » ، وحسبوا لهم ألف حساب . . وهنا لا بد من معاهدة أخرى يعقدها رجال الدين حماية لأنفسهم من غضب الملوك ورجال السياسة . . فيتم التفاهم مع أصحاب الأموال الضخمة من الرأسماليين الذين يستغلون الشعب أسوأ استغلال ، وفي كلا

الحلفين ، مع الملوك أو رجال المال ، خسران الشعب وضياع لحقوقه . . كل ذلك مقابل شبر موهوم من الجنة يشترى بدماء الشعب البائس بصورة يسمونها « صكوك الغفران » .

ويبدأ البطش برجال الكنيسة من قبل رجال الحكم ، لأنهم تدخلوا فيما لا يعنيهم ، وحشروا أنوفهم في أمور سياسة الدولة التي هي من شأن الحكام والساسة وحدهم . . ولا بد من أن يرضخ رجال الدين للأمر الواقع ويطلعون على الناس بآية من إنجيلهم يرددونها في صلواتهم : دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . .

ويستغل المصلحون في أوربا من ناحية ، والملوك من ناحية أخرى أوامر رجال الدين هذه ، ويتمسكون بها لتكون سلاحاً ذا حدين يحارب به المصلحون تكتل السلطتين ـ الدينية والزمنية حسب ما يقسمون ـ ويحارب به الملوك ما للكنيسة من سلطان وتأثير حين تفكر في فرض نفسها على الناس في الدنيا والآخرة .

وتعقد بين الطرفين أو السلطتين كما يسمونهما معاهدات وهدن يكون من شأنها تحديد سلطة كل فريق بحيث لا يتعداها إلى سلطة الآخر . . ولتكن سياسة هؤلاء بلا دين ، وليكن دين أولئك بلا سياسة .

وتنهض أوربا نهضتها الحديثة بعد هذا الفصل الصريح بين الدين والدولة ، وتخدع هذه النهضة كثيراً من رجال الشرق الغافلين ، فيدعون لهذه الفكرة ويتبنون هذا الرأي منادين محبذين أن نقلد أوربا في كل شيء « خيرها وشرها ، إيمانها وكفرها ، حلوها ومرها » . .

وقد نسي هؤلاء أن الدين الذي يطالب معتنقه بأن يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، الدين الذي يحمل كل فرد من الرعية تبعة ثقيلة وأمانة كريمة ليكون كل فرد راعياً مسؤولاً عن رعيته ، مخرجاً من عداد معتنقيه كل من لا يهتم بأمرهم ، مؤكداً أن الدين هو النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، مصراً على أن من يرى منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه . . فإن لم يستطع فبقلبه ثم يدمغ الفئة الأخيرة التي تنكر المنكر بقلبها ولا تحاربه باليد واللسان بأنها ضعيفة الإيمان . ولست في مجال شرح لأصول الدين الإسلامي العظيم وتوضيح لحقائقه ، وإنما أرى لزاماً عليّ أن أرسم الخطوط العريضة ، وأضع النقاط الواضحة لأبين الفارق الكبير بين الدين الذي هجرته أوربا فتقدمت كثيراً في مجالات العمران ، والتخريب كذلك ، والدين الذي يطالب الموتورون بتركه أسوة بأوربا ؛ دون تفرقة بين وضع ووضع ، أو دين جاء ليكون للناس نظاماً شاملاً ودستوراً كاملاً ، وآخر جاء ليكون في

المعبد لا يتعداه وفي الصومعة لا يخرج إلى غيرها . . ثم ظهر على مسرح الحياة الاسلامية في بلدان الشرق الغافل أناس انتسبت أسماؤهم للإسلام وتنكّرت قلوبهم له وكفرت تصرفاتهم بمبادئه ، فحسبوا عليه وعدوا من حماته فكانوا وصمة سوداء وعاهة شوهاء في الوجه الإسلامي الأغر وفي جبين الرسالة المحمدية السمحة الكريمة .

والذي يقلب صفحات الأيام ويبحث في زوايا التاريخ يعلم علم اليقين ما كان يدعيه العثمانيون من حمايتهم للإسلام وإعلائهم لكلمته ـ ولقد كان فيهم رجال صادقون في دعواهم ، مخلصون في انتسابهم للإسلام قولاً وعملاً ـ إلا أن هذا لا ينفي وجود من كان الإسلام منه براء ، وكان الإيمان لتصرفاته منكراً . . ووجود أمثال هؤلاء الداعين باسم الإسلام المخالفين لأحكامه . . . إنما هو نكبة النكبات ومصيبة المصائب اذ يعلنون للملأ أجمع ، أن هذا هو الدليل الذي ما بعده من دليل ، وهذا هو البرهان الذي ما بعده من برهان ، على أن « الاسلام » لا يصلح للحكم ، وعلى أن كتاب الله ما جاء إلا لفترة معينة وزمن مخصوص ، وأنه بانقضاء هذه الفترة وبمضي هذا الزمن وتقادم العهد عليه أصبح لا يصلح منه إلا ناحية مخصوصة هي الناحية « التعبدية » لأناس مخصوصين هم « رجال الدين » وأوجدت الطبقة التي ما عرفها الاسلام يوما بمفهومها « اليوم » . . وأصبح

في الشرق المسلم رجال سياسة . . ورجال دين ، كما كان في أوربا المسيحية وكما هو اليوم : رجال حكم ورجال كنيسة ! . .

وفي الفترة التي يطغى فيها الحكام باسم « الاسلام » المفترى عليه ، ويرضى فريق ممن سماهم الظالمون « رجال دين » . . بما يمليه عليهم أولئك الظلمة مرهبين أو مرغبين . . لا بد للشعوب من أن تستيقظ على لذعات سياط الطغاة وأنين المعذبين ، فلا تسمع إلا حوقلة وبسملة وترجيعاً وتأميناً ، فتظن الشعوب المغلوبة على أمرها أنها ما وقعت في الظلم ولا سقطت في شباك الذل إلا باتباعها الدين ورجاله وبطاعتها وبانقيادها لأوامز الأنبياء . . ولهؤلاء العلماء الذين هم « ورثتهم ! » فتثور ثورة معربدة مجنونة لا تبقي ولا تذر ، مكتسحة أمامها الأخضر واليابس والخير والشر والفضيلة والرذيلة .

وثورة الشعوب عندما تكون مجنونة لا تعقل ، عجولة لا تتريث ، وعندما يكون الموجهون لها : لا يعلمون من أمر الإسلام أكثر مما يسمعون من الحوقلة والترجيع ساعة الاستيقاظ ، تكون النكبة على الأمة ويكون البلاء الأعظم الذي لا يدانيه بلاء ، وهذا غير ما حصل في تركيا يوم قاد ثورتها في وجه ظلم « الباب العالي » مصطفى كمال أو أبو الأتراك كما يسمونه !

هذا الرجل . . ما عرف من أمر ربه شيئاً ، وما فهم من إسلامه الذي ينتسب إليه أكثر من أن اسمه مصطفى ، في السجل الرسمي للدولة . . فكان في ثورته بعض الخير أو كله لتركيا ـ كما يبدو للكثيرين ـ من ناحية تخلصها من الاستعمار الأجنبي وإبدالها الضعف قوة . والحقيقة الواقعة التي غابت عن أذهان الكثيرين أن مصطفى كمال لم يفعل ما فعل من مظاهر العز والاستقلال للأمة التركية إلا بعد أن أملى عليه الانجليز « الحلفاء ! » شروطاً لا يرضى بها كل عزيز يحترم نفسه ويقدر إرادة شعبه ورغبات أمته . . أقلها :

١ ـ إلغاء الخلافة العثمانية ـ التي كانت صورية ـ حتى لا يفكر المسلمون في بعث الإسلام السليم وذلك تمهيداً للقضاء على الفكرة الإسلامية في نفوس أصحابها .

٢ ـ إقامة سد منيع من التقاليد الغربية والمظاهر الأوربية بين تركيا المسلمة والشرق من ناحية ، وتركيا والإسلام من ناحية أخرى .

٣ ـ إلغاء اللغة العربية في تركيا بل تحريمها حتى في الآذان من فوق المنائر . . وما أظن عاقلاً يقول برجولة وكرامة من يرضخ لعدوه بمثل هذه الشروط مهما قيل أنها ليست ذات بال ، ومهما

ادعى المبطلون أن ليس لها أثر في حياة تركيا . . بين الأمس . . واليوم !

وعلى هذا فقد كان في ثورة أتاتورك شر مستطير لا تدانيه شرور الأرض جميعا إذ تردت تركيا ـ الحكومة ـ ولا أقول تركيا ـ الشعب ـ في بؤرة سحيقة من بؤر اللادينية التي تدنو بالشعوب نحو المادية البحتة والحيوانية الخسيسة .

ولم يتدبر مصطفى كمال ، ولم يحاول أن يفهم هو أو يترك المجال لمن يفهمه ، أن هناك فارقاً كبيراً بين ما كان يراه في تركيا ممثلاً للإسلام ، وبين الإسلام على حقيقته الصافية التي لا خور فيها ولا خنوع ، لم يفهم مصطفى كمال من الإسلام إلا أنه دين تكايا تغص بها البلاد ويأوي إليها المتطلون العاطلون ليعيشوا عيشة « التنابلة » ، ولا هم لهم إلا إطلاق اللحى وإطالة السبح وترقيع الثياب . . ثم فهم من «الإسلام» في تركيا يومئذ أن هناك طبقة خاصة يسمونها « رجال الدين » تتساوى في كل شيء مع « رجال الدين » في أوروبا ، في القدسية التي تحف بهم وفي التنزيه الذي يكتنفهم من جانب الشعب ؛ أما من جانبهم فعرقلة للنهضات ومحاربة للإصلاح ، واستغلال لتخدير الجماهير ، ووقوف في طريق النهوض بالأمة .

وهنا عششت في ذهن هذا الرجل الأمي الجاهل بالإسلام

فكرة فصل الدين عن الدولة وبدأ تنفيذها بحذافيرها ولم لا . . ؟ وها هو ذا يرى أوروبا تسير بخطوات واسعة نحو الرقي منذ اليوم الأول الذي هتف فيه رجال الكنيسة في صوامعهم : دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله !

وراح كمال أتاتورك يحارب الإسلام الصحيح والعقيدة السليمة ، فلم يفرق بين رجل فهم الإسلام وآمن به مبدأ سامياً وعقيدة كريمة في الدنيا والآخرة ، تحارب الظلم وتحقق العدالة ، وتفرض المساواة ، ورجل « تدروش » واستخذى إلى الحد المزري والدرجة الوضيعة التي لا تتفق مع ما للمؤمن من عزة وما له من كرامة .

وكان مثل هذا الرجل - أتاتورك - كمثل من حرّم على الناس شرب الماء الزلال من ينابيعه الصافية لأن في المستنقعات ماء آسناً وحمأ مسنوناً ينشر الوباء ويزيد من الداء العضال داء عضالاً .

ولم يعدم « أتاتورك » من يقلده ، فلقد انطلق الموتورون الذين تنكروا لتراثهم وكفروا بنعمة ربهم وراحوا يسيرون وراء كل ناعق ينفخون من أرواحهم الدنسة في زمر طيبة من الشباب ضلت على أيدي هؤلاء يوم أن أوحوا اليها : دين غبي بلا سياسة وسياسة كافرة بلا دين .

ولكن هؤلاء المغرضين تناسوا حقائق التاريخ التي لا يمكن لأحد أن ينكرها إلا ظالماً متجنياً ومنها :

ما كان لتركيا قبل أن ينقطع بها السبيل عن النبع الصافي الكريم للإسلام العظيم من سطوة ورهبة وجلال في أعين القوي قبل الضعيف من دول الغرب التي لا تؤمن بغير منطق القوة والبطش مع أنها ـ أي تركيا ـ كانت « مريضة » في الرمق النهائي من حياتها وفي النزع الأخير من وجودها على وجه المعمورة كدولة لها كيان .

كل هذا الخوف وهذه الرهبة وهذا الإجلال كانت تتمتع بها تركيا ـ أو الرجل المريض ـ كما كانوا يسمونها لأنها كانت تقول مجرد قول : أنا الإسلام ، وما كانت في أواخر أيامها تعرف من الإسلام غير أسماء ضخمة وألقاب عريضة فكيف بها لو آمنت به قولاً وعملاً وطبقته في واقع حياتها . . إذن لما استطاع الغرب أن يرفع رأسه يعيث في الأرض فساداً ويبغي فيها ظلماً وعدواناً . . وعلى هذا فرائحة الإسلام التي كان « يشمها » الغرب بأنفه من بعيد في أطراف الدولة العثمانية هي التي كانت تقلق راحته وتعكر صفو الحياة عنده فعمل ما وسعه العمل على أن يتخلى الشرق المسلم عن إسلامه ليذل للمستعمر بغير إسلام ويخضع بغير إيمان . أما تركيا اليوم فالجميع يعرف الدور الذي

تقوم به . . لا هيبة ولا سطوة ولا جاه . . وإنما هي ألعوبة في أيدي الدول الغربية على اختلاف نزعاتها الاستعمارية . . مدفعاً أو دولاراً ! . .

كل هذا لأن تركيا ـ الحكومة ـ تخلت عن إسلامها واكتفت بتقليد الغرب تقليد القرود ، تعب من سؤره وتقتات من فضلاته مدفعاً ودولاراً وكتاباً وقبعة ، ومع ذلك فتركيا تصر وتدعي أنها رجل سليم لا مريض كما كان الحال في الدولة العثمانية ! . .

و« لرجل مريض » يخيف الغرب ويرهب الأمم أعز وأقوى وأكرم من « سليم » معافى لا حول له ولا قوة ، وإنما هو آلة طيعة في أيدي أعدائه ، وأداة هينة لينة في أيدي العابثين وهذا هو نفس المصير الذي لا بد أن تتردى فيه أية دولة شرقية تحاول نفس المحاولة وتسلك نفس السبيل الذي سلكه مصطفى كمال ، يوم أن فصل بين تركيا العظيمة وروح الإسلام الكريم ؛ حيث تتحول الأمة إلى مجموعة من « القردة » البشرية « والببغاوات » الانسانية تقلد الغرب في كل شيء جماعات وأفراداً ، هيئات وحكومة متخلية عن تراثها متنكرة لمبدئها ، لا لشيء . . إلا لأن الغرب فصل بين الدين والدولة فارتقى كما يزعمون . ولا بد لنا أن نصنع نفس الصنيع وأن نقوم بنفس المهمة .

إن مثلنا ـ نحن أمم الشرق المسلم ـ في محاولتنا فصل

الدين عن الدولة ـ كمثل فرقة من الجند تصر إلا أن تتخلى عن سلاحها القوي المتين في صميم المعركة وتستبدل به غيره . . لأن سلاحاً آخر لفرقة أخرى في ميدان غير الميدان . . ثبت أنه ذخيرة فاسدة لا يكسب معركة ولا يدفع إلى نصر . .

منطق أعوج ، لا بد أن يؤدي إلى مأساة أليمة . . يضحك لها الأعداء ويألم لها الأصدقاء الأحبة .

إن النداءات الخبيثة التي تنطلق بين الفينة والفينة من الحناجر الدنسة المأجورة ـ كلما قام رجل من المكافحين بحركة في هذا الشرق ـ قائلة : مرحى لأتاتورك هذه الأمة ؛ لتوسوس له بأن يسير سيرة أتاتورك ، وينهج نهجه في تصرفه الأهوج المأفون . . ليست إلا إيحاء خبيثاً توحي به مصادر معينة لها غرض مخصوص لا يحيد عن الطعن في الإسلام ، ولا يميل عن محاربته قيد أنملة ونهايتها لا شك فاشلة خاسرة إلى فناء ، قررها القرآن العظيم منذ أن نزل : ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾ ! .

«الإسلام» الذي يصنع الكفر والطغيان

ومنذ أن بدأ الاستعمار من ناحية ، والطغاة من ناحية ثانية ، وأعداء الإسلام على اختلاف نزعاتهم من ناحية ثالثة .. يقررون هذا الوضع في الشرق ، ويؤكدون صحة ما يقولون به من الحيلولة بين الإيمان والحكم ... بدأت مفاهيم الإسلام تمسخ في أذهان الأغلبية الساحقة من المسلمين على اختلاف درجاتهم الثقافية والمعاشية والاجتماعية التي خلقها الاستعمار أو ساعد على إيجادها على الأقل ؛ تعينه زمرة ضالة من أبناء الأمة المتآمرين عليها في الظلام .

وأوحى إلى الطبقة الخاصة التي ثبت أركانها ترغيب الطغاة وترهيبهم وأسموها « رجال دين » ... أن يفهموا الناس الإسلام بصورة معينة صنعها « العدو » وعلى وضع مخصوص رسمه

أعداء الإسلام (مساجد شامخة قائمة يعمرها الفقراء والعاجزون ، فيؤدون فيها ركعات خالية من معاني الروحانية والخشوع إلا من هدى الله . . . وأيام تصام في العام فتكون موسماً للتعطل والتبطل والطعام والشراب وقلما تتجدد فيها نفس أو تزكو بها روح . .) ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾ .

هذه المظاهر الخادعة من المسابح والملابس واللحى والمراسم والطقوس والألفاظ والكلمات . . أهذا هو الإسلام الذي أراده الله أن يكون رحمته العظمى ومنته الكبرى على العالمين ؟

أهذا هو هدي محمد ﷺ الذي أراد به أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ؟ أهذا هو تشريع القرآن الذي عالج أدواء الأمم ومشكلات الشعوب ، ووضع للإصلاح أدق القواعد وأرسخ الأصول[1] ؟

وتمادى « تجار الدين » فلم يكتفوا بما أملاه الطغاة عليهم من صورة مظلمة للإسلام بل زادوها ظلمة على ظلمة ومسخاً

---

(١) من كلمات الإمام الشهيد حسن البنا في رسالة « الإخوان المسلمون تحت راية القرآن » .

على مسخ . . فأدخلوا عليها أنواعاً شتى من الضلالات والبدع التي تثار حول الإسلام والخرافات التي تلصق به . . ففهم الناس أن الإسلام : مسبحة مسترسلة ، وجبة فضفاضة ، ولحية كثة ، وطبل أجوف ، وعلم ممزق ، ومزمار « أحياناً » يرتلون على أنغامه ما شاءت عقولهم أن يرتلوا ، وما شاء لهم الاستعمار والطغيان أن يرددوا مترنحين متمايلين ذات اليمين وذات الشمال ، وهم يدعون أن هذا هو الحب في ذات الله ، وهذا هو الهيام في ملكوته !

وتبارى الناس في ابتكار المناسبات والموالد للذكر كما يزعمون ، والترنم على دقات الطبول وترنح الرؤوس ، حتى فاقوا في عصرنا الحديث « العهد الفاطمي » الذي أوجد هذا كله ليلهي الناس عن ظلم الحكام وعذاب المحكومين !

وشاهد المسلمون ـ وغير المسلمين على السواء ـ ما يرتكب في هذا العصر من بدع ، وما يشيع فيه من منكرات باسم موالد الأولياء والصالحين من بيع مخدر ، وتجمهر الناس في بيوت الله من كل حدب وصوب رجالاً ونساء ، وذكر هو أقرب إلى الرقص المعربد المجنون منه إلى ذكر الله الواحد القهار الذي لا بد من التأدب معه في وضع وعلى أي حال . . وانتشر الميسر جهاراً نهاراً في حلقات واسعة في رحاب بيوت الله ينادون فيها أن أقبلوا

على بركة السيدة زينب وأبي الشهداء الحسين . . !

وما أحسب الحسين الشهيد ـ الذي يرزق عند ربه ـ إلا ويألم كل الألم ويسخط كل السخط إذ يرى المسلمين في هذا الوضع المزري ، يستغلون اسم آل البيت استغلالاً سيئاً دنيئاً في سبيل الحصول على لقمة من الرزق الحرام ، وبطرق لا تمت إلى روح الإسلام من قريب أو من بعيد . .

والذي يقوم بزيارة ضريح أو قبة شيخ ! . . لا يسعه إلا أن يخرج ـ إن كان مؤمناً بحق ـ ساخطاً غاضباً حزناً أسفاً لما يشاهده تحت قبة الضريح وبين جدرانه من تبرج وخلاعة لنساء كاسيات عاريات مائلات مستميلات حضرن لزيارة « الولي » أو لتقديم عريضة له يطلبن فيها ما شاءت عقولهن أن تملي عليهن . . وفي مثل هذه الحالة يتحول الضريح ـ المتصل اتصالاً وثيقاً ببيت الله الذي يعبد فيه ويسجد له ـ إلى معرض من معارض الأزياء والأصباغ والعطور ؛ فتجتمع الفتنة كلها من امرأة شبه عارية وزجاجة عطر فواحة ومساحيق زائفة ببريق الجمال الآثم المصطنع ، أمام الرجل الذي لا يمنع من الزيارة من نفس الطريق وفي نفس الساعة حيث تتزاحم المناكب والأقدام الآثمة في رحاب بيوت الله العلي الكبير . . يحدث هذا وأكثر منه . . وفريق من رجال الدين قابعون غير بعيد من مكان الحادث

ومسرح الجريمة - وأنها لجريمة في حق الله ورسوله والأولياء الصالحين - ولا هم لهم إلا البسملة المجردة من معاني الروحانية والتسبيح المطبوع بطابع التكلف والرياء الرخيص .

مهازل أظن أن للاستعمار وأعوانه دخلاً كبيراً في تثبيت دعائمها في الشرق المسلم . . حتى يمسخ حلاوة الدين وتهلهل قيمه . . حتى لا يكون فرق بين المسجد الذي اختص بالعبادة في حدود الأدب والحشمة والكرامة - للرجال والنساء على السواء - وبين أي بيت آخر يعبدون فيه ما يعبدون أو معرض للأزياء عريق ! ليقرروا التشابه الكبير بين الأديان جميعاً فيصلوا إلى نتيجة المشابهة في البعد عن السياسة والحكم ! . .

لقد وصل الاستعمار - بوسائله العديدة - إلى نتيجتين يعتبرهما الأساس المتين لبقائه في الشرق . . ذلك أنه أنسى المسيحيين الشرقيين حقيقة دينهم بأن نشر بينهم حضارة الغرب الداعرة الرخيصة ودفعهم إلى تقليده تقليداً أعمى يقوم على التعصب للغرب المسيحي في الملبس والمأكل والمشرب والمنهج في الحياة اليومية ، وأنسى المسلمين حقيقة إسلامهم بأن رسم لهم صورة للإسلام غريبة ليس فيها من حقائق الإسلام شيء . . تعتمد أول ما تعتمد على البعد بالإسلام عن مظاهر

الحياة العديدة في البيت والمصنع والحقل والمدرسة . . وميدان الحكم ! . .

ومنذ أن فهم الناس « الإسلام » على هذه الصورة وأدركوه على هذا الوضع ظنوا أنه خاص بفريق من الناس الذين يرونهم في « الذكر » وفي حلقات « الرقص المقدس ! » يترنحون !

فبدأ الناس يتحللون من إسلامهم ما دام خاصاً بفريق دون فريق حتى أنه ليطرق سمعك من كثير من الألسنة إذا ما نصحت أحداً بصلاة أو صيام : ما لك وللناس ، أتسعى لأن «تدروشهم» على يديك ؟ . . بل إن الناس ليطلقون على من يرونه مثابراً على واجبه نحو ربه الذي خلقه وأنعم عليه بأنه « درويش » من الصائمين المصلين . . وكأن الصلاة والصيام ليسا من أركان الإسلام للمسلمين جميعاً ؛ بل ركنان أساسيان لطبقة أخرى جديدة هي « أمة الدراويش » . . وأخذ الناس ينظرون هذه النظرة لكل من دعا إلى الأخلاق محارباً الفساد في المجتمع كيفما كانت صورته كأساً أو غانية أو طاغية متجبراً . .

وانقسمت الأخلاق إلى شعبتين كبيرتين استرسل « المفكرون » في الحديث عنهما حديثاً مستفيضاً لا يقره الإسلام الصحيح والمنطق السليم ، وراحوا يصفون الرجل بأنه وطني كريم غيور على شعبه محب لأمته . . أما أخلاقه

الشخصية فأمر بينه وبين نفسه لا يمت إلى منفعة الأمة أو ضرها بشيء وليفسق ما بدا له الفسق . . وليشرب الخمر ما لذت له الخمر .

ولم يكن هذا المنطق الذي أقر خاصاً بأناس لا قيمة لهم في توجيه مصائر الأمم وحياة الشعوب بل إن قادة الفكر الذين ابتلي الشرق بهم هم الذين يقولون بذلك ؛ لا لشيء إلا لأنهم من ذوي « الأخلاق الشخصية ! » الخطرة على كيان الأمة ومصير الشعب . . فأصبحت عقلياتهم « الفذة » لا تنتج نظريات الإصلاح إلا على رنين كأس أو ضحكات غانية لعوب !

وأصبح الشرق الغافل يسير خطوة أوسع خلف الغرب نحو الانهيار الأخلاقي حيث تكتب قراراته الملكية وأوامره العسكرية ونظريات الإصلاح أو برامج التعليم كلها في رحاب « البار » ، وعلى أنغام الموسيقى الصاخبة المعربدة أو أصوات العابثات الماجنات من بنات الهوى وفتيات الليل !

ثم يقدمها بعد هذا دعاة الإصلاح والتوجيه والوطنية على أنها هي النظريات السليمة الصائبة التي تخطو بالأمة نحو الخير وتسير بها نحو التقدم ! . .

إن الواقع فيما نرى ونسمع ليصد أمثال هؤلاء المفترين

المضللين الذين يقسمون الأخلاق هذا التقسيم السقيم صداً عنيفاً يثبت خطأ نظريتهم التي يقررون ورأيهم الذي ينادون به ، ذلك أنا سمعنا الصحافة العالمية تردد فضيحة[1] عالمية كان لها أثر كبير في الأوساط عامة يوم أن فصلت الحكومة الأمريكية في البلد المنحل ما يربو على ثلاثين موظفاً في وزارة الخارجية الأمريكية بتهمة الشذوذ الخلقي وذلك خشية تسرب أسرار الدولة إلى « العدو » ! عن طريق هذا الشذوذ . . ولم تقل أمريكا ـ وهي البلد الذي ضرب رقماً قياسياً في انحلال أخلاقه وتفككها ـ أن أخلاق هؤلاء مسألة شخصية لا دخل لها في كيان المجتمع وسياسة الدولة .

واستقرت في أذهاننا أوهام حسبناها حقائق أخذت تزحف بنا وتدنو نحو الانهيار في كل شيء . . في أخلاقنا وثقافتنا واقتصادياتنا وكرامتنا كأمة كان لها في يوم من الأيام كيان ! . .

وأول هذه الأوهام أن الإسلام أصبح « عبادة » لا سياسة فيه . . حتى أن الظلم والخنوع والاستعمار تعاونت كلها لتقرر المادة الأولى في قانون كل جمعية دينية تنوي الوقوف على قدميها في البلاد أو تنوي أن تعيش « إدارياتها » على الأرض ؛

---

(١) شبهات حول الإسلام .

« جمعية دينية لا دخل لها في شؤون السياسة » وفهم المسلمون تبعاً لذلك أن الدين شيء والسياسة شيء آخر كما فهم المسيحيون في أوربا ذلك من قبل يوم أن ردد الكهان : دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وتشابه الدينان فلتتشابه النتيجتان . . أن يحال بين الإسلام والحكم كما حيل بين المسيحية والحكم .

هذا إن سلمنا بأن المسيحية اليوم لا تتدخل في شؤون الحكم في أوربا وغيرها ولا تسيطر على عقليات كثيرة متعصبة لرجال الغرب المسيحي وتناسينا ما يلقب به ملك بريطانيا أو ملكتها بالأمس واليوم : « حامي حمى المسيحية . . الخ » .

وما ينادي به الحزب الديمقراطي المسيحي في إيطاليا أو بلجيكا وما قال به أخيرا الرئيس أيزنهاور رئيس الولايات المتحدة بأن : الإيمان بالمسيحية أمر لا بد منه للحكام في العالم المسيحي حتى ينشروا عدلها وسلامها على الأرض . وأخيراً وليس آخراً ما ردده رئيس حكومة ألمانيا الغربية « كونراد أديناور » من أن مهمة دولته وغايتها هي : التبشير بالمسيحية ونشرها في ربوع العالم جميعاً حتى يستتب الأمن وينتشر السلام في ظلال المسيحية العادلة ـ كما يقول ـ .

واستقر في أذهان الشباب من أبناء هذه الأمة أنه لا سياسة في الإسلام . . حتى إنك لتصدم أسفا إذا ما حدثت أحدهم وقد

أوتي شيئاً من الثقافة غير يسير حديثاً عن الإسلام ثم تطرقت فيه إلى السياسة ، إذ يفاجئك بقوله : لا تخلط يا أخي فحدثني في الإسلام والدين أو حدثني في السياسة ، وما عرف صاحبنا أنه هو الذي يخلط في تصوراته وأوهامه هذا الخلط العجيب . . بين حقائق الإسلام وأصوله وبين ما يثار حوله من شبهات ! . .

إن الإسلام الذي « نتداوله » الآن أو الذي يفهمه العامة الذين لم يدركوا حقيقة الإسلام ، ليس إلا خليطا من النظريات التي وضعتها عقليات مختلفة في أجيال التاريخ العديدة من ظلم واستعمار ، ورأسمالية جائرة ، وأعداء للإسلام مختلفين في كل شيء إلا في عداوتهم للإسلام وخصومتهم له . .

رأي وضعه أموي من أمثال « يزيد » ، وآخر أقره « الأمين » في لياليه الصاخبة ، وثالث أملاه فاطمي في ساعات بطشه ، ورابع نادى به الاستعمار من الجزيرة البريطانية ، أو أوحى به الدولار من ذوي ناطحات السحاب . . وأعجب من هذا ، أن « إسرائيل » اليوم بدأت تضع إسلاماً خاصاً للمسلمين الغافلين الذين يتوجهون في صلواتهم إلى الكعبة .

إن « وزارة الأديان » في إسرائيل تضع اليوم نظاماً خاصاً معيناً للوعاظ والخطباء في المساجد . . ماذا يقولون وكيف يعبدون الله ! وهو أمر واقعي لا دخل للعاطفة أو الخيال فيه . .

ليذكروا الناس بالتعاون مع خلق الله في ظلال المحبة والسلام ، وليقولوا للناس ﴿**ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾ ، وليأمروا الناس بطاعة أولي الأمر من الحاكمين . . أما أن يطلعوا على الناس بآية من آيات الجهاد ، أو أن يمروا بآية مما يذكر الله فيها بني اسرائيل في طغيانهم وكفرهم وجحودهم ، أو أن يقولوا إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . . فهذا ما لا تقره إسرائيل ولو كان منزلاً في قرآن المسلمين وفي كتابهم المقدس ! . .

واليوم وقد قيض الله للأمة الإسلامية الفئة المؤمنة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . . .

ويسر لها من يفهمها كنه دينها ، ويوضح لها حقائقه من سياسة وثقافة واقتصاد واجتماع وجهاد ـ فشل أعداء الإسلام في ثالوثهم العجيب « الطغاة والمستعمرون والزنادقة المارقون من أبناء الأمة » في أن تظل الصورة التي رسموها للإسلام كما هي ـ إذ بدأ ما حولها من غبار ينجلي ، وما يكتنفها من ظلمات يتقشع . . يوم أن عرف كثير من أبناء هذه الأمة على اختلاف ثقافاتهم وأعمارهم أن الإسلام سياسة وحكم كما هو عبادة وتهجد .

ومنذ أن عرف الاستعمار أن « مناورته » قد انكشف أمرها وأنها لم تعد تنطلي على أحد ، إذ أن كثيراً من المسلمين آمنوا

بالإسلام دواء لكل داء وعلاجاً لمشكلات المجتمع جميعاً ، أخذ يبحث عن دعوة جديدة يشغل الناس بها ويلهيهم ويخدرهم باعتناقها .

ولست أتهم أحداً فيما أقول ولكنني أترك للقارىء وحده أن يحكم أو يربط بين ما يبحث عنه الاستعمار من نغم جديد يلهي الناس به عن صراعهم وعن كفاحهم ضد العدوان والبغي ، وبين ظهور دعوة جديدة لإسلام جديد لم يسبق لها مثيل منذ أن عرف الإسلام ؛ ذلك أن فريقاً من الناس اليوم يهدفون أول ما يهدفون إلى إقامة حكومة إسلامية تطبق أحكام القرآن كما يزعمون ، دون أن يعترفوا بتربية أو خلق أو تضحية أو جهاد .

أما طريقة وصولهم إلى الحكومة ، وسبيل دنوهم من الدولة . . فهو الثورة أو الانقلاب ، أو ما شاءت لهم عقولهم أن يسموه دون أن يربوا الجيل الصالح الذي يحمي الثورة ، والأمة التي تتقبل الانقلاب أو ترضى بدعوتهم وتقر حكومتهم ، وهم في كل هذا لا يعتمدون على تربية أو يعترفون بخلق إذ يقررون : « والأخلاق لا تؤثر في قيام المجتمع بحال » .

وإلى جانب هذا وذاك يطلعون علينا بثالثة الأثافي إذ لا يعترفون بالجهاد فريضة على أحد إلا بعد قيام الدولة الإسلامية . . والدولة الإسلامية لن تقوم إلا بالجهاد الطويل

والتربية السليمة التي لا يعترفون بها كذلك . . والنتيجة المنطقية لذلك أن لا تقوم دولة إسلامية وأن لا تطبق أحكام القرآن !

ومن هنا يتبين لنا الطريق الملتوي الذي يسلكه الاستعمار لتقرير ما يريده في أذهاننا على أنها حقائق علمية ثابتة ودعوات إصلاحية كريمة !

إن دعاة الفكرة الإسلامية الصحيحة والمؤمنين بحق لن يألوا جهداً في إقامة حكومة إسلامية صالحة ، تطبق أحكام القرآن وتحكم بتشريعاته لتنشر العدل في الأرض ، وتحقق الإخاء والأمن والسلام ، وهم يهدفون أول ما يهدفون لذلك ، ولكن غايتهم لن تكون أبداً هي إقامة دولة إسلامية كيفما تكرمت بها الظروف ؛ لا تقوم على أسس سليمة من التربية والإعداد والتركيز إنما على دراسة نظريات إسلامية أو مناقشات أحكام أو تفهم رسائل ، حيث يستوي الإسلام عندئذ مع أي مبدأ آخر . . بأنه حبر على ورق ونظريات في أذهان بنيه لا يؤمنون بها الإيمان الصادق الذي يضحى من أجله بكل شيء وانما يسعون ـ وأعني بذلك دعاة الفكرة الإسلامية السليمة والحكومة الإسلامية الصالحة ـ السعي كله لإقامة الدولة الحقة الصالحة التي يشد أزرها أبناؤ ها المؤمنون بها العاملون من أجلها . . وفي ظلال هذا الإيمان بالدولة وبوجودها تموت الدسائس ويقضى على

الخيانة التي كثيراً ما تطل برأسها عند كل نهضة ومع كل تغيير لوضع فاسد وواقع مرير . .

إن « الأخوان المسلمين » لا ينظرون للحكومة الإسلامية على أنها غاية يتمتعون بمراكزها وينعمون بكراسيها و« ألقابها » وإنما على أنها وسيلة لتحقيق هدف أسمى وغاية مثلى يقررها رب العزة في الدستور الخالد الكريم ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ . . وعلى هذا فهم يسعون كل السعي للوصول إلى هذه الوسيلة ـ ولا أقول الغاية ـ ولكن في طريق واضح مرسوم وبوسائل شريفة كريمة لا تعيش إلا في النور ، ولا تنمو إلا مع إشراقة الفجر وانبلاج الصبح المنير . .

وهم إذ يعدون العدة صباح مساء لبناء كيان الأمة الإسلامية فإنما ليعدوا الجيل الذي يؤمن بتلك الدولة ، ويحتمل صدره الرصاص من أجلها ، ويضحي بماله وبنيه في سبيلها .

أما على غير هذا الأساس . . وبغير هذه الوسائل فلن يقوم للدولة الإسلامية قائمة ولن يقوم للقرآن حكم . . إلا إذا كانوا يقصدون حكماً معيناً ودستوراً مخصوصاً يصلون به إلى أهداف معينة وأغراض خاصة .

وعندئذ سيجد هؤلاء أنفسهم وجهاً لوجه أمام حقيقة من حقائق الحياة يقررها رب العزة لعباده المخلصين وغير

المخلصين على السواء : ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم﴾ .

الأفغاني: المؤمن الذي أيقظ الغافلين

ما من أحد يشك فيما كان يقوم به معلم الشرق « جمال الدين الأفغاني » من عمل في سبيل تحرير الشرق من النير الثقيل الذي يثقل كاهله ويهد قواه ويستنزف دمه وعزته وكرامته . .

وما من أحد يشك كذلك فيما بثه « الأفغاني » الحكيم في جيل بكامله من روح ثورية ساخطة على كل شيء تشتم منه رائحة الظلم أو يلمح بين ثناياه استبداد وتعسف . .

كان الأفغاني مدرسة متحركة بحق ؛ تلقن العلوم كلها : الفقه والنحو والبلاغة والأدب . . والسياسة « وعلم الثورة » أو بتعبير صحيح سليم كان مدرسة تلقن كثيراً مما ينطوي تحت كلمة «الاسلام» من مفاهيم وما يندرج فيها من معان كبيرة واسعة .

ولا شك أن مثل هذا الوضع لم يكن ليلاقي هوى في النفوس التي طبعت على الظلم وأشربت الاستبداد ، فكانت تسعى جاهدة لأن تعرقل كل حركة يقوم بها الرجل ، وكل نشاط يسعى اليه ، عرقلة جادة غير هازلة في شكل اعتقال أو مراقبة أو مطاردة . . تظهر حيناً سافرة عنيدة . . وتختفي أحياناً لينة ماكرة . .

وكان الأحرار وبعض الذين حاول الأفغاني أن يجعل منهم تلامذة أحراراً في مدرسته ، يلتفون حوله ويعون ما يقول ، ثم يسير كل منهم في اتجاه يختاره لنفسه أو يختاره له أحد سواه . .

كان « سعد زغلول » أحد تلامذة الأفغاني العظيم ، وكان « محمد عبده » كذلك ، ولكل وجهة هو موليها وطريق هو سالكه دفعته إليه ظروف معينة وملابسات خاصة ، قد نلتمس العذر في بعضها ، ونصر على تقرير الواقع في بعضها الآخر .

وانتهت الحال بسعد زغلول بأن أعجب بزيف السياسة فخطف بريقها بصيرته قبل بصره ، وسار في الطريق الذي يسير فيه عادة عشاق الهتاف وهواة التصفيق في غمرة زحام الجماهير المهرجة المهووسة ، ونسي ربه ونسي الدين الذي كان ينبغي أن يقوم باسمه ؛ ولف ودار كما يدور كل محترف للسياسة على غير أصولها الكريمة وقواعدها السليمة ، فكانت النتيجة أن فشلت

ثورة ١٩١٩ لأنها انحرفت ـ ولا أقول قليلاً ـ عن منهاج الله الذي لا بد من اتباعه لمن أراد وجهه ، وخدمة الشعب ، ومصلحة الأمة .

واتسمت ثورة ١٩١٩ بطابع شخصي قوامه : المصلحة وحب الذات والأنانية القاتلة التي لا تدخل في كيان أمة إلا وتهدمه ، ولا تنخر في جسم إلا وتأتي عليه من الأساس . وتنوسيت الجماهير الثائرة التي جاءت من الحقل والسوق والمصنع تحمل الفأس والمعول والعصا لتحرب الاستعمار بصدور لا تحمل غير الايمان بالله وعدالة قضية الوطن ، تنوسيت هذه الجماهير ليقام على أشلاء الضحايا منها مجد زائف براق لأناس أحبوا الهتاف وعشقوا التصفيق ، وتفانوا في سبيل الوصول إلى الأهداف الجوفاء ، والظهور بالمظاهر الكاذبة .

ثم انتهت الحال بمحمد عبده ـ الذي كان من تلامذة الأفغاني الأحرار ـ أن سلك أخيراً طريق التسامح ، واتبع منهاج اللين ، ليستخلص حقوق الشعب بهذا الأسلوب وهذه الوسيلة .

ولا نهضم حق الرجل فنجرده من حسناته التي صنع ، ومن مواقفه المشرفة التي وقف ، ولكنها على كثرتها قليلة بالنسبة لمحمد عبده . . الجمرة التي كانت تتلظى من نار الأفغاني

الملتهبة المحرقة . . وأنطفأت الجمرة وخبا لهيبها فلم تعد إلا هيكلاً لرجل يروح ويجيء لا يرضى بالمنكر ولا يمنعه ، ولا يؤيد ظالماً ولا يقف في طريقه معتقداً أن الطريق السليم للإصلاح هو مداراة الحكام وملاينتهم حتى تستخلص منهم الحقوق التي يطالب بها الشعب . .

لقد كان محمد عبده ثائراً في فكرته ، هادئاً في طبعه وفي تكوينه ، ولو أتاحت الظروف للإمام أن يظل بعيداً عن الصراع العملي الذي دفع إليه بحكم أوضاع بدأت يوم أن قامت ثورة « عرابي » لكان خيراً له ولمصر ؛ إذ كان استاذاً وإماماً في شرح فقه « الإصلاح » وفكرة « النهوض » ، ولكن قيام الثورة يومئذ في مصر ، ومناهضة محمد عبده لها في بدء قيامها صور للملأ أجمع أن الإمام يضيق بالثورات ، ولا يقرها في شعوب ينقصها الوعي وينقصها إدراك كثير من حقائق الإسلام التي لم تكن واضحة في الأذهان بعد .

هذه فكرته وهذا طبعه فكانت نهاية الطريق للرجل : أن سكت طويلاً منكراً المنكر بقلبه ، عاملاً على أن يزيله بالأسلوب الذي يراه والطريقة التي يرتضيها في صمت وسكينة .

وفارق كبير بين من يجتهد فيخطىء في اجتهاده ، وبين من ينحرف عن قصد ويخطىء عن سوء نية .

والذنب ليس ذنب الأفغاني فيما أقدم عليه بعض تلامذته من الانحراف عن الطريق السوي من أمثال سعد زغلول ، وإنما ذنب الفهم الخاطىء لفكرة الرجل ، وسوء الإدراك لما كان يلقنه من مبادىء وآراء ، أو قل سوء النية والضمير عند من انحرف وضل سواء السبيل . .

لقد كنت إلى عهد قريب ، وقريب جداً ، أؤ من بان مدرسة الأفغاني كانت مدرسة بلا منهاج ، وفكرة بلا برامج ، وعقيدة لا تسير في طريق واضح مرسوم ، ومن تتبعي لتاريخ تلك المدرسة وأستاذها العظيم أيقنت أن الذنب ليس ذنب الأفغاني ، وانما ذنب البيئة التي وجد فيها والظروف التي أحاطت به من كل جانب .

إن اجتماعات الأفغاني بتلامذته وبالناس جميعاً في المقاهي والشوارع والمجتمعات العامة ودور الصحافة في السر والعلن ، لم تكن لتخلق الجيل الذي يؤمن بالفكرة ويضحي من أجلها ، وإنما خلقت جيلا « يعجب » أيما إعجاب بالخطيب والمتحدث ثم « ينفض » أيما انفضاض من حوله ، وتكون النتيجة أن ما يبنيه الخطيب من فكر ، وما يضعه من آراء لا يلبث أن ينهار حالما تنفض الحلقة ، ويتفرق الجمع .

وإذن فمدرسة الأفغاني في واقعها لم تخلق إلا جيلاً من

« المعجبين » بالفكر والمبادىء والآراء ، غير منشىءٍ تنشئة أو معد إعداداً .

والعيب الثاني الذي كنت أراه - إلى عهد قريب كذلك - من عيوب تلك المدرسة . . أنها كانت ثائرة بعنف لا تعرف كيف تبني كيانها بقدر ما تعرف كيف تهدم العدو . . وإذا رجحت كفة هدم العدو والثورة في وجهه على كفة بناء جيل يؤمن بالفكرة ويضحي من أجلها تكون النتيجة فاشلة لا محالة . . وإنما الذي ينبغي أن يكون هو أن تهدم لبنة أو لبنات من بناء العدو ليقام ما يقابلها في كيان الوطن وما يعدلها في كفة الأمة . . إلى أن تحين الفرصة فتضرب الضربة القاضية التي تطيح بالطغاة من عليائهم وتدك عروش الظالمين . .

وهذه هي سنة كل ثورة تتسم بالنجاح والفوز : أن تسبق بطور إعداد وتهيئة ، وأن يتقدمها بناء في كيان أفكار الأمة ليتم الهدم في كيان العدو . . وبذا تصان كل حركة ترمي إلى القضاء على الطغاة والمستعمرين في شتى العصور والأمكنة . .

وهذا هو « خط الرجعة » الذي يقول العسكريون والمدنيون على السواء بوجوب صيانته والمحافظة عليه . . أما الأفغاني . . فقد كان ثائر الأسلوب ، ثائر الفكرة - بحكم وضعه وتشريده من بلد إلى آخر - لم يساير البناء والإعداد والتهيئة في أي طور من

أطواره . . وعلى هذا لم يترك إلا جيلاً من « المعجبين » بالأفكار و« هواة » المبادىء . . تحولوا فيما بعد ، يوم أن وجدوا المعلم الصالح الذي يبني ويربي في « محاضن » الإسلام جيلاً مؤمناً بدينه معتزاً برسالته مضحياً بدمه . . عن إيمان وفهم وعقيدة .

وطبيعي أننا حين نقرر هذه الحقائق في واقع مدرسة الأفغاني وواقع الشرق ، فإنا لا نحمل الرجل العظيم تبعة انحراف بعض تلامذته ، أو فتور همة جيل بكامله لأنه من الظلم والإجحاف، يوم أن يكتب التاريخ أن نطالب هذا الرجل الفذ الذي أيقظ شعوباً مشتتة وأمة تفرقت بها السبل . . أيقظها وهي في سبات عميق لا تعي أو تدرك مما يحيط بها شيئاً . . أقول من الظلم والإجحاف الكبيرين أن نطالب الرجل بعد أن حطم القيود ونبه الأذهان بما كان يشعله في المجتمعات من نار الحقد والكراهية والثورة في وجه الاستعمار في شتى صوره . . داخلياً كان أم خارجياً . . فأشعر الشرق بالنير يحز في عنقه ولم يكن ليحس به أو يدرك النهاية التي تنتظره . . لولا صيحات الأفغاني المدوية التي أيقظت الغافلين ، وحطمت أغلال المستضعفين في الأرض . .

ومرة ثالثة أقولها : من الظلم والإجحاف . . أن نطالب الرجل بعد هذا كله ـ وعلى قصر المدة التي عاشها في كل قطر

كان يرحل إليه شريداً طريداً بلا زوج ولا ولد ولا درهم ولا عرض من الدنيا رخيص ـ بأن يقوم بطور الإعداد والبناء ، ولم يكن بين يديه إلا لبنات صالحات لا تكفي لأقامة صرح أو النهوض ببناء . . ولم يكن باستطاعة الأفغاني ـ لقصر مدته ، وظلمة عقلية الجمهور في عصره ، وجهل الناس بحقيقة إسلامهم ، وعدم استقراره في مكان ـ أن يصنع لبنات أكثر مما صنع . . ولكنه قام بدور المهندس . . أو المنبه . . أو الدليل . . يوم أن هتف في الشرق الغافل : هذا هو الطريق السوي . . فسيروا على بركة الله حتى النهاية ! . . وسارت القافلة ومرت بمراحل كثيرة . . وقطعت شعاباً عدة . . سقط خلالها من سقط ممن لم يقو على مواصلة جهاد أو تحمل تبعات . . وشذت السبيل بمن شذت ممن لم يستطع الانتصار على النفس . . ومقاومة الهوى . .

وظلت فئة مؤمنة صالحة تقية تحمل مشعل الاسلام الذي تسلمته من يد الأفغاني الحكيم . . المشعل الذي كاد يخبو ويندثر لولا أن تداركته يد العناية الإلهية بالرجل الملهم الذي بنى جيلاً بكامله أسلم بناء ، وأسس نهضة متينة على أسس صحيحة من الايمان والفهم والتضحية والفداء . .

أن أعظم ما كانت تتسم به عقلية الأفغاني وروحه الحية . .

هو تجاوبه مع كل مشكلة من مشاكل البلد الذي يحل فيه ، وتفانيه في كل قضية من قضاياه . . حتى لكأنك تحسب الرجل ما خلق إلا من أجل هذه المشكلة عينها . . ولا لشيء سواها . . وليس هذا بالأمر الغريب فالرجل أدرك حقيقة إسلامه ، وآمن - منذ أن قام بدعوته - إيماناً عميقاً بقولة سيد البشرية : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . .

هبط مصر . . وما أدراك ما مصر ! . . بلد العجائب في شتى فترات التاريخ وتقلبات العصور . . هبطها فلقي فيها ما لقي : ترف ونعيم . .وبطش واستبداد . . هذا من جانب السلطة الحاكمة . . يعدلها في كفة الشعب جوع وفقر ومرض وجهالة . . ثم سيل من الصحف التي ابتليت بها مصر يومئذ بلا مبدأ ولا هدف . . ولا عقيدة . . فقال الرجل فيها كلمته الخالدة : « ما أكثر الجرائد السياسية والعلمية والأدبية في هذه البلاد ! . . إن الشعب في حاجة إلى جريدة أبسط من ذلك كله . . جريدة تقول للناس : إغسلوا أرجلكم . . إغسلوا أيديكم . . إغسلوا ثيابكم » وما عنى الأفغاني الفيلسوف إلا حاجة الشعب لمن ينقذه من الجوع والعري والفقر والجهالة . .

وظل الأفغاني في صراع مرير طويل مع السلطة الحاكمة في مصر من ناحية . . والاستعمار من ناحية . . وما أكثر الفترات التي

مرت بالشرق حكمه فيها أناس لا بقاء لهم بغير الاستعمار ولا بقاء للاستعمار بدونهم . . كلاهما متمم لصاحبه . . لا غنى له عن الآخر . .

إلى أن ضاق خديو مصر ، وضاق الأنجليز بالأفغاني الثائر وتعاليمه الثائرة التي تهدف أول ما تهدف إلى هدم الظلم وطرد الاستعمار ؛ فأمر به أن يخرج من مصر . . ومنها رحل إلى الهند . . وهناك - في الهند - وجد مشكلة الساعة التي ابتلينا بها في كثير من الأوقات . . هي جهل المسلمين بحقيقة دينهم ، وفهمهم للشبهات التي حطت حوله على أنها من صميمه ومن جوهره . . وكان القدريون ينشرون بين الناس ضلالاتهم ، ويثيرون في أوساط الجماهير الشك ، والانحلال والانهزامية . . وكان على الأفغاني العالم أن يحارب الفكرة بالفكرة والرأي بالرأي ، فانبرى لهم يرد على افتراءاتهم ، ويفند مزاعمهم ، إلى أن أبطل حججهم وقضى على الضلال الذي يسعون به بين الناس في الأرض .

يقول الأفغاني : إن العلامة المميزة للمسلم في الهند يومئذ كانت أن يحمد الله على أنه من أكلة لحوم البقر . . وهو أمر كان المسلم في الهند يقنع به ويرضى من كل ما في الاسلام من فكر وما فيه من تشريعات وآراء ومبادىء . . فثارت نفس

الأفغاني في الهند ، ولم تحابِ أحداً على حساب الاسلام أو تجامل هيئة أو رجلاً على حساب العقيدة .. ولذا نراه يطلق كلمته الخالدة فيهز بها الهند هزاً ويوقظها إيقاظاً : « أما والله لو كنتم سلاحف وأنتم بهذه الكثرة وسبحتم إلى الجزر البريطانية ورفستموها بأرجلكم لأغرقتموها في قاع البحر ! » .. وأخرجه الانكليز من الهند ليحط الرحال في إيران .. وهناك أحس الرجل بالمشكلة التي تشترك فيها أمم الشرق عامة .. الاستعمار في شتى صوره داخلياً أم خارجياً .. أجنبياً أم « وطنياً ! » .

وأحس الأفغاني الحكيم المجرب بالثغرة التي يمكن له أن يهاجم الاستعمار منها وأن يكيل له من خلالها اللطمات ..

كان « التبغ » في إيران إذ ذاك يعدل بتروله اليوم .. في إنتاجه وطرق احتكاره واستغلال البلاد وأهلها لتدر على الأجنبي الخير ، ويترك الشعب صاحب الحق بلا طعام ولا مأوى .. ولا كرامة ! .

كان الإيراني إذ ذاك يشتري « مزاجه » بماله وأعصابه وصحته ودمه .. ثم يدفع هذا كله لشركات أجنبية تحتكر هذه السلعة الوطنية : « التبغ » .. التي تزرع في إيران بأيد إيرانية صميمة لا تنال في كثير من الأحيان قوت يومها .. أما الاستعمار فله كل شيء من مال ودم وسلطة وسيادة ..

ومشكلة التبغ بالأمس في إيران .. هي مشكلة البترول اليوم .. وما يقال عن هذه يقال عن تلك مع فارق بسيط هو أن التبغ يزرعه إيرانيون كذلك بأيديهم ، ويحرقه إيرانيون كذلك بأعصابهم .. ثم يقبض الاستعمار الثمن !

وعلى هذا عمل الأفغاني وفريق من علماء البلاد المخلصين على إصدار فتوى تحرم تعاطي هذا « المكيف » وتبين الأضرار الجسيمة التي تلحق بالشعب من جراء تعاطيه له .. في صحته وماله وسيادته وكرامته .. وكسدت البضاعة ، ولطم الاستعمار أول لطمة من الرجل الذي تحدى أصحاب السلطان في الأرض وظلمهم مستعيناً بسلطان السماء ، وعدالة رب العالمين .

ومن الواضح جداً أن تسعى السلطة الحاكمة والاستعمار معاً على إخراج الأفغاني من إيران ، فيحمل حملاً وبالقوة حتى حدود تركيا . وهناك لا تتأثر نفس الرجل بما يراه في ظلال « الباب العالي » من ظلم وبطش حيناً أو إغراء وفتنة حيناً آخر .. يسيطر بهما الظالمون على عقول الناس وأحاسيسهم ومشاعرهم .. وإنما يصر إلا أن ينصح السلطان صاحب الحول والطول .. الرجل الذي كان ينفذ ما يبدو له ، أو ما تقترحه عليه حاشية السوء .. ولو كان عين الضلال .. والغواية !

ورفض الأفغاني « المسلم » أن يسلك في سجل « العلماء

الرسميين » الذين كانت تحلي صدورهم الأوسمة اللامعة ، وتلفهم الأردية الفضفاضة المذهبة ، وإنما عرف قدر نفسه وقدر العلم الذي يحمل في صدره يوم أبى هدية السلطان التي بعث بها إليه ليشتري سكوته . . رفضها بكل عزة ليرسلها كلمة خالدة لو وعاها « ورثة الأنبياء » اليوم لردوا للدين اعتباره ، وللعلم قدره وجلاله : «قولوا لمولاكم السلطان إن جمال الدين يرى أن رتبة العلم هي أعلى الرتب ، ثم قولوا له إنني لا أستطيع أن أكون مثل البغل المزركش » .

إن الناس ليعجبون كل العجب لهذا الرجل يوم أن غادر إيران الى تركيا . . يعجبون إذ يرونه لا يملك من حطام الدنيا غير ما يستر به جسده . . ثم يسأله سائل من الناس عن الصندوق الذي يضم ملابسه ومتاعه . . فيجيبه المؤمن إجابه أحسبها جديرة بأن تسجل بأحرف من نور في صدر كل عالم وكل فقيه . . بل وكل مسلم يرجو لقاء الله واليوم الآخر :

« ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب » فيقول له الياور : « دلني إذا أمرت على مكانها » فيشير الحكيم الى صدره قائلا : أما صناديق الكتب فها هنا ، وأما صناديق الثياب فهذه ـ مشيراً إلى جبته ـ ثم قال : « كنت أول عهدي بالنفي أستصحب جبة ثانية وسراويل ، ولكن لما توالى النفي صرت أستثقل الجبة

الثانية فأترك التي علي إلى أن تخلق فأستبدلها بغيرها » .

لقد فارق الأفغاني هذه الحياة الفانية ولم يترك له زوجاً ولا ولداً . . ولم يعرف من أي البلاد انحدر . . فلقد اختلفوا في نسبه بين إيران والأفغان . . ولكن الجميع متفقون على أنه مؤمن مدرك لحقيقة إيمانه . . مسلم فاهم لما ينادي به الاسلام من عزة وكرامة وإخاء وخير وسلام . . للناس جميعاً . . في ظل كتاب الله وشريعته السمحة الغراء . .

مات الأفغاني ـ عليه الرحمة والرضوان ـ ولم يترك ولداً أو زوجاً أو مالاً . . ولكنه ترك أجيالاً من الناس ، وأصداء من الصيحات الكريمة التي ما زالت تشهد للرجل بانه فيلسوف الاسلام ، معلم الشرق ، رائد الحرية ! . .

* * *

ما أظن رجلاً في الوجود - إن لم يكن نبياً - مهما أوتي من علم وإخلاص وعمل يستطيع أن يصنع أكثر مما صنع الأفغاني الحكيم الثائر في نفس الفترة المظلمة التي وجد فيها ، ونفس المدة القصيرة التي عمرها في كل قطر . . وبنفس الإمكانيات التي أتيحت له . .

إن الذين يطالبون الأفغاني بأكثر مما صنع - من بناء وإعداد - إنما يتجنون على حقائق التاريخ إذ يطلبون ما لا يستطاع ويلتمسون ما ليس في الإمكان . .

لقد نبه الأفغاني أجيالاً كثيرة ، وأمماً شتى إلى الظلم الذي يحيق بها ، والنير الذي يحز في أعناقها . . وأشعرها بأن لها عزة يوم لا عزة للأمم وأن لها كرامة يوم لا كرامة للشعوب ! . .

ومات الأفغاني . . وترك الشعلة التي نراها اليوم تتلألأ في أيد أمينة على دعوة الإسلام مخلصة لرسالة القرآن . . مات الأفغاني بعد أن قال للأمم والأجيال والتاريخ :

هذا هو الطريق !

***

«لن أكتب عن الامام الشهيد كما سبق لغيري أن كتب . . .
ولن أذكر كثيراً من نواحي الخير التي تطرق لها الآخرون ،
ولكنني سأقتصر على ناحية واحدة قد ينفرد بها هذا « البناء »
وحده ، ويختلف بها عن كثير من المصلحين .

إنها ناحية البناء والإعداد والتكوين . . كيف مكن لها
« حسن البنا » من نفسه وعلمها غيره من تلامذته المخلصين » .

***

أمة مؤمنة .. في رجل مؤمن

وفي غمرة التاريخ .. ومن بين ملايين الناس من أبناء الأجيال التي أعقبت تاريخ نشأة مدرسة الأفغاني في مصر برز رجل من المؤمنين بفكرته ينادي بحرب الاستعمار ، والنهوض بالشرق ، وتحرير الأمة من القيد الذي يلتف حول عنقها وينوء به كاهلها المنهوك السقيم .. وصبغ هذه الدعوة كلها بالاسلام ديناً ودولة ، عقيدة وعملاً ، عبادة وقيادة ، مصحفاً وسيفاً ، صبغة صالحة كريمة تلائم كل الملاءمة الأرض التي بذر فيها الأفغاني بذور الحرية .. ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ .

هذا الرجل بإيمانه الكبير يعدل أمة بكاملها تسعى بخطوات حثيثة نحو المجد ، وتعمل جاهدة للنهوض من كبوتها . رجل مؤمن بحق ، أو أمة مؤمنة بصدق تقمصت شخصية هذا الانسان

الفذ . . وهذا « البناء » العظيم الذي صنع من رماد النار التي أججها الأفغاني . . جحيماً لا يطاق، يكوي جنوب الظلمة والمستبدين ويقض مضاجع المستعمرين . .

وأضاء من الاشعاعات الباهتة التي كادت تتلاشى أقباساً لها لهيب ولها نور . لهيب يشوي وجوه الظلمة . . ونور يضيء السبيل للأجيال بين حاضرة وقادمة .

وأقام من الأنقاض المتهدمة على روح الثورة وفكرة النهوض صروحاً عالية شامخة ، قوية متينة لا يزعزعها بطش ولا يهدمها جبروت . .

إنه « حسن البنا » الذي بنى جيلاً وأقام صرح أمة . . إن التاريخ اليوم ليسجل مرغماً - على ما حشر فيه من أقلام مغرضة وأفكار ضالة وأهداف موتورة - أن « حسن البنا » كان طرازاً آخر من الرجال قل أن يجود الزمان بمثله إلا عندما يطفح كيل البغي ويبلغ سيل الظلمة الزبى . .

وعندما أتناول القلم لأنصف الرجل - مع من أنصفت في كتابي - وسينصفه تاريخ الرجال الصادقين في عهدهم ، البارين بوعدهم مع الله ورسوله ، فأنا في شك من أني سأبلغ منزلة الكمال في إنصافه ، أو درجة الدقة البعيدة المدى في حديثي عنه لأن الحديث عن أمثال هذا « البناء » مترامي الاطراف بعيد

الجوانب متشعب النواحي . . فإن بلغت بعض الذي أبغي فهو فضل من الله ونعمة ، وإن قصرت همتي عن الوصول لما أريد فالكريم الكريم يعفو ويصفح والله - أولا وأخيرا - غفور رحيم .

لست بمتحدث عن حسن البنا « الخطيب » الذي كان اذا انساب الحق بين جنبيه على لسانه تلقفته قلوب وعقول ولمسته وجدانات ومشاعر ، فلا يغادر المكان الا وقد انجلت عن القلوب الغواية .

ولست بمتحدث عن حسن البنا « الكاتب » الذي لم يكن لتهمه المحسنات اللفظية في الكلام بقدر ما كان يهمه سرد الحقائق وذكر الوقائع ، حتى إذا أمسك بقلمه انتقل بمن يقرأ له في جنبات تاريخ أمته من ماض كريم إلى حاضر أليم ، ثم راح يصف الدواء لكل داء وهو يشير لك في كل حرف من حروف سطوره : أن عاهد الله معي على أن تكون للاسلام حتى النهاية ! . .

وحديثي عنه يطول ، « زعيماً » إذا ما حل في مكان التفت حوله القلوب واشرأبت إليه الأرواح . . زعيما آمن أن الزعامة الحقة في التواضع ، وأن « الرفعة » الصحيحة في الخلق الكريم ، وأن قيادة الأمم وتوجيه الشعوب يحتاج إلى الاخلاص في القول والعمل والتضحية بكل غال وثمين ، لا في أمتلاك

« العزب » وبناء القصور وكنز الذهب وتضخم الاسهم في الشركات والأرصدة في البنوك ، ثم التحلي بالألقاب الجوفاء والمظاهر الزائفة التي لا تزن عند الله في ميزان الحق شيئاً . . .

ولن أذكر في معرض حديثي عن « البنا » ذي اليد الكريمة كيف كان « رحالة » يجوب القرى والأمصار ويطوف بالعالم الاسلامي قطراً قطراً يتلمس الداء ليصف له الدواء ، من الكتاب الذي لا يفارق قلبه ولا يغادر بين جنبيه . . أقول حديثي عنه « رحالة » يطول لو ذكرت له مواقفه المشرفة الكثيرة ومساعيه المحمودة مع كثير من رجالات الفكر الاسلامي لتوحيد الجهود وإنهاض الهمم مما كان وسيكون له أكبر الأثر في نهضة الاسلام الحديثة وبعثه الجديد . .

و« الصحافة » التي نزل إلى ميدانها كل من هب ودب ، وحملت لواءها أيد ملوثة مأجورة وقلوب دنسة خاوية ليس فيها من الإيمان مثقال حبة خردل . . آمن « البنا » أنها - أي الصحافة - لو اتجهت نحو الخير لآتت أكلها وجنت ثمارها ، فكان « صحفياً » قديراً يشرف على ثلاث صحف كبرى بين يومية وأسبوعية وشهرية ليس فيها « سم » صحافة اليوم من صور عارية ، وأفكار ضالة ، وقصص تافهة ، وفيها كل خير من توجيه سديد ، ورأي صائب ، وهدي مستقيم .

أستطيع ـ غير متجن على أحد وغير ظالم للتاريخ ـ أن أقرر أن « حسن البنا » سلك طريقاً للنهوض بالأمة ، ولعزة الاسلام لم يسلكه أحد قبله إلا الذي نؤمن إيماناً عميقاً أنه قدوتنا وزعيمنا وقائدنا رسول الله ﷺ . . ونحن حين نحلل أعمال الرجل وتصرفاته تحليلاً دقيقاً ، ونبحث في كل ما كان يقوم به نخرج بنتيجة واحدة هي : أن الرجل آمن بقول ربه ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ ، وطبق على نفسه وعلى من حوله قول الرسول الكريم : « **تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي** » .

إننا حين نستعرض تاريخ « رجالات الاسلام » في الأجيال المختلفة العديدة نجد أن لكل حسنات ، وله أوجه من الخير عديدة رفعته إلى مصاف المصلحين ، وسلكته في سجل الخالدين في تاريخ الشعوب ، ولكنا حين نمعن النظر في جهود هؤلاء نجدهم جميعاً يهدفون نحو هدف أسمى وغاية مثلى هي رضا الله الذي منه إسعاد الشعب وصيانة الأمة من كل سوء . . ولكنا نجد الأساليب مختلفة :

فالرجل الذي وقف جهده ووقف حياته على الاجتهاد ليطلع على الناس بمذهب معين وأحكام تفصيلية عظيمة للاسلام الكريم ، لا شك أن له أجراً أي أجر في كلا الحالين :

إن أصاب فأجران وأن أخطأ فأجر واحد . .

والرجل الذي انقطع عن الناس ولجأ إلى عزلته ليسكب عصارة فكره وذوب عقله على ورق يقدمه للأمة كتاباً نافعاً في شتى نواحي حياتها لا شك أنه قدم لها تقدمة كريمة ، كلفته الكثير من وقته ومن دمه ومن أعصابه . .

والرجل الذي ثار في وجه الظلم بعنف وبقوة . . ولكن بلا خطة واضحة مرسومة لا شك أنه كريم الدرجة عند ربه ، عظيم المكانة بين الناس بإنكاره وأمره بالمعروف . . وقوله كلمة الحق في وجه سلطان جائر . .

والذين يعتزلون المجتمع خوف أضراره ، ويزهدون في الحياة مخافة التعلق بملاذها ، لا شك واصلون إلى الله في النهاية ولكنه الطريق القريب السهل يسلكه الذين لا يقدرون على جهاد ولا يتحملون الصراع مع العدو في شتى صوره كفراً أو استبداداً أو فساداً في المجتمع . .

ولكن الطريق الشاق العنيف الذي لا يسلكه إلا ذوو الهمم العالية والقلوب الكبيرة والعقول النيرة ، هو أن تدخل الحياة من باب الصراع مع الفساد وكيفما يكون لتنقذ المعذبين من سياط الفقر والظلم والجهالة . . وعندئذ ينشأ المجتمع الاسلامي

السليم الذي يرضاه الله ونترقب جميعاً يوم ميلاده . . مهما طال الزمن ! . .

وهذا هو السبيل الذي سلكه « حسن البنا » يوم أن جعل الله غايته منذ أن كان طالباً في الثانوية :

سئل : ماذا تود أن تكون في مستقبلك ؟ . فلم يجب كما يجيب الطلبة العاديون في تفكيرهم ، البسطاء في عقلياتهم ، السطحيون في الفهم . . لم تخدعه النجوم تلمع فوق أكتاف العسكريين ، ولم يغره الوشاح الزاهي في صدور القضاة على المنصة العالية ، ولم يأخذ بلبه رداء الطبيب الناصع وآلته الدقيقة الحساسة ، وإنما أجاب ببساطة وفطرة سليمتين : أريد أن أكون « معلماً » للأمة التي ضلت ، وللأجيال التي انحرفت عن طريق الهدى وسبيل الرشاد .

وهكذا سلك حسن البنا طريق الأنبياء . . معلماً للأجيال ، وأستاذاً للأمة فكان بحق . . مرشداً وإماما .

كم تتجنى الصحافة على التاريخ يوم نسمع المتطفلين عليها يرددون بين حين وآخر اسماً من الأسماء « العريضة » التي رنت في المجتمع رنيناً منكراً وأرسلت فيه لحناً نشازا .

يرددون أن فلاناً ، من الناس أستاذ الجيل ، وذاك موجه

الشباب . . وإنك لتصرع ألماً يوم أن تعلم أن ابنة لأستاذ مزعوم من أساتذة هذا الجيل البائس أقامت حفلة[1] كبرى في أعظم فندق من فنادق القاهرة أنفقت فيها ما يناسب المقام ، ودعت لها طلاب جامعة أجنبية بكاملها . . كل ذلك احتفاء بعيد ميلاد كلبها المدلل ! .

وأحضر الكلب ، والتفت حوله أشباه الرجال وأشباه العذارى ، وراحوا يصفقون ويهتفون . . والموسيقى المعربدة تصدح حولهم وهم يحيون المحتفى به الذي أقيمت الحفلة على « شرفه ! » .

هذا أنموذج لضلالات التاريخ يقدم أستاذاً من أساتذة الجيل الذي تصنعه الصحافة وتقدمه للأجيال لتضلل الناس وتتجنى على التاريخ . . عجز عن أن يكون مربياً لأسرته التي فيها يعيش ، وأستاذاً لابنته التي مسخت مفاهيم الحياة في أفهام الناس ، وأنفقت على كلبها ما نعلم أن « المصري » البائس في الحقل والمصنع في أشد الحاجة إلى بعضه ! .

أما حسن البنا : فقد كان إلى عهد قريب في نظر تلك الأبواق الاستعمارية والوريقات الصفراء المضللة رئيساً لجمعية

---

(١) حدث هذا عام ١٩٥٠ .

إرهابية تدعي الدين . . . ! أو مرشداً لجمعية تدخلت في شؤون السياسة ! .

لقد كان لحسن البنا أسلوب آخر من أساليب المصلحين ، وطريقة مثلى من الطرق التي تؤدي إلى نهاية الخير وخير النهاية . .

لم يحاول أن يكون مجتهداً يحاور هؤلاء ويرد على أولئك ، ولم يحاول أن يكون مؤلفاً له من الكتب والمجلدات ما تغص به الرفوف وتزدحم به المكاتب ، ولم يقف في وجه الاستعمار بالطريقة التي سلكها كثير من الأحرار أعزل يهاجم هؤلاء ويندد بأولئك لتكون النتيجة أن يقتل « البنا » . . فيخبو لهيب الحق بين جنبيه ، وينطفىء نور الهداية المنبعث من قلبه المؤمن فتضل الأجيال من بعده ،وتمزق الجموع إلى أن يأتي رجل آخر فيدور في نفس الحلقة المفرغة التي دار فيها الأحرار المؤمنون من قبل ومن بعد . . ظلم فثورة فبطش فجموع زاخرة من الجماهير الضالة التي لا تجد الراعي الصالح والبناء العظيم .

ولم يفهم حسن البنا أن من معاني الزهد اعتزال الناس والبعد عن المجتمع ، وإنما فهم وآمن أن من أولى دلالات الزهد المعيشة البسيطة والحياة برفق مع بعد عن الترف وتحاش

للتخمة . . وهذا ما كان الرجل يسير عليه في حياته . . في بيته . . أو في بيوت الآخرين .

أقول : لم يسلك حسن البنا طريقاً من هذا كله ، وإنما سلك طريقاً آخر كان يرى نهايته بعين المؤمن وبصيرته . . سلك طريق البناء والإعداد والتكوين ، ويوم أن يكون الجيل قد أعد ، والبناء قد أوشك على النهاية ، والصرح في طريقه نحو المجد فليقتل البناء . . فسيظل بناؤه قائماً بعزة ومنعة يشهد الأجيال ويخاطب التاريخ ، على أن الدم الزكي الذي أريق ، والروح الطاهرة التي أزهقت ليسا إلا الحجرين الأساسيين للبناء القوي المتين .

كل الذي عمله حسن البنا ـ في كتابته ـ أن وضع اثنتي عشرة رسالة صغيرة الحجم عظيمة الفائدة شرح فيها الإسلام بأسلوب واضح مبسط يدركه الجميع . .

يقرأ له العالم فيأخذ كل حرف من أحرف كلماته بشغاف قلبه ، ويستمع الجاهل لما كتب فيفهم القول ويهز أعطافه ومشاعره . . ولم يتح لأحد من الكتاب أن استولى على مشاعر العامة والخاصة على السواء في كتاب واحد وموضوع واحد وعبارة واحدة .

ذلك لأن حسن البنا كان يكتب ما يؤمن به . . ويقول ما

يعتقد . . ويعالج أدواء المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه ، ويصف أحوال مصر والشرق لا أحياء باريس ومواخير فيينا وصالات مدريد ! .

إن حسناً البنا كان ينبض بالاسلام روحاً وقلباً وعقلاً وضميراً ، ولم يكن يكتب بقلم فرنسي ويد انكليزية وروح أمريكي عريق . . أو يفكر برأس كافرة تعلوها عمامة ، وصدر مريض تلفه جبة فضفاضة ورداء واسع عريض . .

كان الرجل متجرداً من كل شيء إلا من جوهر الله وتفانيه في سبيل مرضاته ، متجرداً من الدنيا وما فيها من عرض رخيص ، متجرداً من أعصابه ومن دمه ومن ماله ومن ذويه .

لم يكن ليرحم نفسه ، وكيف يرحم نفسه أو يشفق عليها ولم يره أخ في ليله مع النائمين .

ولا يعني هذا أن الرجل لم يكن لينام أبداً ، وإنما السر فيه أنه كان آخر من ينام وأول من يصحو ، ذاكراً ربه قياماً وقعوداً وعلى جنبيه . . ولم تكن « سنة » النوم التي يجود بها على نفسه إلا فترة من فترات صحوة القلب يعد بها نفسه لما يجب أن يعمله بعد اليقظة ، ليستأنف جهاده ويبدأ عمله متنقلاً في سبيل الله ، مؤلفاً بحول الله وقوته القلوب المشغولة بغيره المنصرفة عنه ،

وأنه ليصدق كل الصدق قولاً وعملاً إذ يقول في وصاياه العشر لتلامذته الذين رباهم :

« الواجبات أكثر من الأوقات ، فعاون غيرك على الانتفاع بوقته وإن كان لك مهمة فأوجز في قضائها » .

ذكر أخ حادثة وقعت لحسن البنا . . لو وقعت لغيره لهز الدنيا وملأها دعوى ونشر أتباعه في الأرض يعلنون عن صلته بالله . وعن الحجب التي كشفت له .

كان الامام الشهيد في بيت أخ من الريف . . . وكان في جمع من الأخوان الأحبة ، وأصر الأخ إلا أن ينالوا عنده بعض طعام ثم خرج وعاد يستأذن الامام الشهيد لينصرف بضع دقائق يعود بعدها . لكن الأستاذ فاجأه بقوله : لا داعي للأرز . هات ما عندك من طعام بيتك الميسور ولو كان خلا وماء . فصاح الرجل دهشاً : الله أكبر يا شيخ حسن ! . . ثم أخذ يتفرس وجوه الحاضرين دهشاً مستغرباً لما رأى وسمع ، فالامام كشف عن بصيرته حتى عرف ما في نفس المضيف ، إذ أنه كان يسعى لأن يأتي ببعض الأرز من خارج بيته . . . ولكن حسنا البنا الذي لم يكن يسعى وراء الكسب الرخيص والمظاهر الكاذبة أشار للرجل يصحح فهمه للموضوع وخاطبه بلغة القلوب : يا أخي مالك تعجب لم يكن كل ما حدث إلا مجرد صدفة غريبة أطلعني على

ما في نفسك .. إنها إبنتك الطفلة التي كنت ألاطفها منذ لحظات سألتها عما ستقدمه من طعام فقالت : إن أبي سيغادر البيت ليشتري لك أرزاً وهكذا عرفت ما أنت مقدم عليه .

من يضيع مثل هذه الفرصة التي يسعى اليها المدعون المهرجون بجببهم الفضفاضة وطبولهم الجوفاء وأعلامهم الممزقة .. ولكنه حسن البنا ذو الخلق المؤمن الذي لا يقول إلا الحق بما هداه الله .. وأنعم عليه ..

ولم يكن الإمام ـ أفسح الله له في جنته ـ ليسلك وحده سبيل البناء الذي سلك وطريق الاصلاح الذي رأى، وإنما كان يعلم علم اليقين أن الانسان مهما امتدت به الأيام لا بد واصل إلى نهاية .. قد يفاجئه بها القدر على غير ميعاد ، فكان يعد من تلامذته ـ الذين وثقوا من صدق دعوته وإخلاص عمله ـ رجالا يعاهدون الله فيصدقون ما عاهدوا الله عليه ويعدون الرحمن فيخلصون فيما وعدوا به .. رجالا أثبتوا للملأ أجمع يوم أن حلت بهم المحنة أنهم جميعاً بناؤ ون لا هدامون ، وأساتذة في فن الإعداد والبناء لا تلامذة مبتدئين ..

هذه هي الطريقة المثلى التي سلكها حسن البنا .. ألا يكون أنانياً في فنه يحتفظ « بسر الصنعة » ـ كما يقولون ـ وإنما لقن « فنه » لكل من أقبل عليه وتفانى في سبيله ... وارتضاه

لنفسه خطة ومنهاجاً .

قد يبدو لكثير من الناس مما كتبت عن الامام الشهيد أني بالغت في إنصافه حتى بلغت حداً لا يرضاه المنصفون ، ولكن الواقع الأكيد والحقيقة الصادقة يعلنان أبداً على مر الأجيال أن «حسن البنا» كان أمة في رجل . . وجيلا في فرد، وروحاً حيةً اختاره الله لهذه الأمة مع من يختار من المصلحين لينقلها من ضلال ويهديها من غواية .

إن التاريخ الأمين ، هو الذي سينصف هذا البناء العظيم بالرغم مما حشر فيه من أقلام دنسة وأغراض خبيثة . . والأجيال وحدها هي التي ستحكم لتسجل بأنه كان رائد الخير والكرامة والحرية ! .

والله أولا وأخيراً . . هو الذي قرر مقام الرجل ومكانته يوم أن قال عز من قائل : ـ

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

❊ ❊ ❊

إن الإسلام الذي يحارب الشيوعية ، هو عين الاسلام الذي يحارب الاستعمار، وهو عين الاسلام الذي يحارب الطغيان . . فافهموه على أنه كل لا يتجزأ تبعاً لأهواء الناس . . يأخذون ما بدا لهم أن يأخذوا ، ويهجرون ما بدا لهم الهجر . .

ويوم أن نفهم الاسلام على هذا الوضع - وقد بدأنا نفهمه - فلن يكون للشيوعية أو الاستعمار أو الطغيان صوت يسمع أو أمر يطاع ! . .

إن الاسلام اليوم في طريقه إلى قلوب أبنائه . . أو الابناء اليوم في الطريق اليه . . وهو بزحفه هذا إنما يعود إلى مكانه الطبيعي ووضعه الواقعي من حياتنا التي جفت بغيره أمداً طويلاً . . فـ ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً** ﴾ . . لتسعد البشرية الضالة وتحظى الانسانية المعذبة بالعدالة والمساواة . . والاخاء والحرية ! . .

❊ ❊ ❊

بعث جديد .. أو عودة إلى الإيمان

وأخيراً ها هي ذي تباشير الفجر الجديد تلوح في الأفق .. وها هي ذي شمس الاسلام الكبرى تشرق على الكون فتغمره بضيائها .. وتملؤه بنورها .. والناس جميعاً بين سعيد وتعس وفرح مستبشر أو مشمئز حقود ..

هؤلاء فرحون بعودة الإسلام من جديد أو عودة الناس إليه بعد طول هجر ومرارة غياب ، وأولئك حانقون تقطر وجوههم غيظاً وقلوبهم نقمة .. يتساءلون في دهشة ، أين كان هذا العملاق الضخم ؟ .. وفي أي « قمقم » كان يختفي ؟ .. حقاً لقد فوجئوا بانطلاقه وزحفه بالرغم مما وضعوا في طريقه من صعاب وما أقاموا من سدود .. إنهم يؤخذون إذ يرون « المسلمين أنفسهم » من جديد يدخلون في دين الله أفواجاً ..

والواقع أن السر في تأخر إشراقه الفجر وفي طول انتظار الأرض له ، لم يكن إلا بسبب حجب الظلمة الكثيفة التي لفته وحالت بينه وبين الناس من استعمار وطغيان واستبداد وشيوعية وتحلل وفساد ودعوات ضالة مبطلة اختلفت كلها فيما بينها . . واتفقت على شيء واحد . . هو حرب الاسلام . . ومقاومة الرسالة الخالدة ! . .

فالاستعمار يعلم حق العلم أن لا حياة له بالاسلام . . لأنه - أي الاسلام - يحتم على أتباعه أن يكونوا أعزة في ديارهم ، كراماً في أوطانهم ، وهذا أمر لا يقره الاستعمار ولا يرضاه .

والطغيان واثق كل الثقة بأن لا وجود له بهذا المبدأ وهذه العقيدة لأن الاسلام أول ما يحارب الظلم وأول ما يهدم الطغيان والبطش والجبروت . .

والانحلال والفساد والتهتك تعلم كلها أن في بقاء الاسلام موتاً لها . . لأن الاسلام يدعو إلى حياة كريمة ويسعى بتشريعاته إلى إقامة مجتمع سليم نظيف - من كل دنس ورجس - لا تشوبه شائبة . .

والشيوعية التي تحارب الظلم الاجتماعي - كما يقول دعاتها - تعلم أن لا بقاء لها في ديارنا لو فهمنا إسلامنا على

حقيقته وأدركنا تشريعه كما جاء من عند ربه . . لأنه يسعى أول ما يسعى لاقامة العدل في الأرض ونشر الاخوة والمحبة والسلام والرفاهية للشعوب جميعاً على اختلاف أجناسها وأديانها ! . .

إننا اليوم نرى الاستعمار . . وأعوانه من حكام الشرق يحاربون الشيوعية باساليب لا أخالها إلا تزيد المبدأ أضطراماً وتشحذ همة دعاته شحذاً لا يزيدهم إلا استمساكاً بها . . ودفاعاً عنها . . لأنه يشعرهم بأنهم مكافحون في سبيل عقيدة وفكرة . . ورأي ! .

ولذا كان على المصلحين إن أرادوا القضاء على سرطان الشيوعية أو وقف تيارها أن يحاربوا المبدأ بالمبدأ والرأي بالرأي . . وأن يدرأوا الفساد الذي يدَّعي « الاصلاح » بإصلاح حقيقي خير منه وأفضل . . .

ونحن نعلم ما في « الاسلام » العظيم من مبادىء وآراء وتشريعات في مختلف شؤون الحياة اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية . . ونعلم أن حرب الشيوعية حرباً منظمة تقضي عليها في المهد هي أن نعلن مبدأ الاسلام ، وأن نطبق أحكامه ، وأن نفسح المجال لكل ما يقول به محارباً الشيوعية والاستعمار والظلم على حد سواء . . وعندئذ تبدو الشيوعية بجانبه قزماً ضئيلاً وسراباً خداعاً . . يحسبه الظمآن ماء . .

ولكن الاستعمار والاستبداد لا يقرّان انطلاق الاسلام على هذه الصورة فيتفقان مرة أخرى مع الشيوعية ـ عدوهما اللدود ـ على أن يقف الجميع في وجه هذا العملاق الضخم الذي لو انطلق من قيوده لما أبقى على ظلم أو استعباد . . أو فساد ! .

يهمل هؤلاء الاسلام وكل ما جاء به . . ثم يستشيرونه في ناحية واحدة معينة تعنيهم أكثر مما تعني الاسلام والمسلمين . . هل الشيوعية حرام أم حلال ؟ . . اتحارب الاسلام أم تقره ! . . وهل هي عدو له . . أم حليف أمين ؟ . .

وهو أسلوب كما نرى رخيص لا يقف في وجه الشيوعية التي يتمشى مظهرها مع المفاهيم الشعبية الكادحة التي ترنو إلى الرغيف فلا تجده . . وإلى القرش فيعز عليها . . وإذن فلا بد من أن تنساق وراء دعوة الرغيف . . وأن تصغي لنداء المعدة الخاوية ! .

وهكذا بقي الاسلام بعيداً عن مجتمعنا أو بقينا في معزل عن الاسلام ، لأن قوى الظلم والفساد جميعاً تحاربه بما فيها « رجال الدين الرسميين » الذين لم يعنوا بغير مظاهر حسبوها من الاسلام ، ولم يفقهوا غير جزئيات بسيطة ليست هي كل شيء فيه والناس من وراء هؤلاء يسيرون فيجهلون إسلامهم . . ولا يدركون منه غير مظاهر طرب لها الثالوث العجيب « الشيوعية

والاستبداد والاستعمار » مع ما يلحق به من روافد من كل نوع . . وكل ناحية . . من فساد وصهيونية وطائفية وإقليمية ضيقة وحزبية مخربة ومدارس تبشيرية مغرضة . .

ولكي يتضح لك مدى جهل الناس بحقيقة إسلامهم في فترة من فترات الظلمة في الشرق المنكوب . . يكفي أن تعلم أن الهندي المسلم ـ كما يقول الأفغاني الحكيم ـ كان يجيبك إذا ما سألته عن دينه بأنه يحمد الله على أنه من أكلة لحوم البقر . . هذا كل ما كان يفهمه من إسلامه . . أنه يبيح لحم البقر طعاماً للناس . . وقس على هذه العقلية وهذا الفهم في شتى بقاع العالم الاسلامي يومئذ ومجتمعه المريض . .

أما اليوم فإنك لتسعد كل السعادة وتستبشر كل الاستبشار ، إذ ترى العامل في مصنعه ، والتاجر في متجره ، والطالب في مدرسته ، والفلاح في حقله . . . كثير منهم يحدثك عن الاسلام ديناً ودولة وكيف يعالج مختلف شؤون الحياة . . ويحل مشكلاتها . .

* * *

لقد كان الشاب الذي يدرج نحو الجامعة ولم يصلها بعد . . يخجل أيما خجل ، ويأنف أيما أنفة أن يتهم بالاسلام أو أن يقال عنه من بيئة دينية محافظة . . ذلك أن أعداء الاسلام

جميعاً سكبوا في أذهان الشباب عصارة واحدة اتفقوا على صنعها ، و« مصلاً » واحداً اتفقوا على تحضيره . . ذلك أن يتحلل الشاب من دينه ، وأن يتنكر لميراث أسلافه الذين صنعوا التاريخ بأيد نظيفة وضمائر حية وعقول نيرة . .

ومن صالح الاستعمار ألا يفهم الشاب دينه ليظل ضارباً في دياره الأطناب . . ومن صالح الظلم أن يجهل الناس حقيقة إسلامهم ليظل ركن البغي قوياً متيناً . . ومن صالح الشيوعية أن ينحل الشاب ويتنكر لتراثه حتى « تفرخ » و « تعشش » في الظلام . . ظلام العقول . . والأكواخ . . والمعدات الخاوية ! .

أما اليوم فإنك لتحمد الله على هذا التغير العجيب في كيان الشباب ، وفي عقليته ، إنه لم يعد يأنف من أن « يتهم ! » بالاسلام . بل نراه يصر إلا أن ينادي بالاسلام ، وأن يهتف لدولة القرآن ، وأن يقيم في كل معهد وكل كلية بيتاً من بيوت الله يذكر فيه اسمه . . ويسبح فيه بحمده بالرغم مما يلاقيه من معارضة وما يصده من عقبات يضعها الذين صنعهم الاستعمار . . أو صنعهم الظلم ، أو صنعتهم الشيوعية على الأعين وأرضعوا اللبن في « محاضن » العدو من « ثـدي » الضلال . . والفسق . والغواية ! .

* * *

لقد كان العالم الاسلامي ممزق الأوصال في أذهان بنيه وواقع الحياة . . وعلى الخارطة الجغرافية ، وكلنا يذكر ما أجاب به رئيس وزراء مصر في عهد غابر عندما سئل في « محفل دولي » عن قضية فلسطين فقال : « أنا رئيس وزراء مصر لا رئيس وزراء فلسطين ! . . . » .

أما اليوم فقد بدأ العالم الاسلامي يتجمع ، وبدأ يتحد في أذهان بنيه على الأقل وفي أفكارهم ومشاعرهم . .

إنك تسمع الصانع في مصنعه ، والفلاح في حقله يحدثك عن مشكلة إيران ، ويألم لمشكلة كشمير ، ويشرح لك أوضاع باكستان وأندونيسيا . وتونس ومراكش والجزائر ، ويضحي بدمه وماله في سبيل تحرير كل بقعة منها يوم أن يدعى إلى الجهاد . . وما زالت الدماء الزكية تشهد الأيام والتاريخ على أن « فتية الاسلام » لم يتقاعسوا ولم يهنوا ولم يحزنوا . . وإنما بذلوها رخيصة في سبيل مصر . . وسبيل فلسطين . . وسبيل الله أولاً وأخيراً . .

وما أظنهم . . سيتراجعون . . أو يتخلفون عن الركب . . وعن الطليعة . . يوم تقع الواقعة في رحاب الأقصى . . أو القتال في الجولة الثانية ! . .

* * *

كان الناس يؤمنون بكثير مما يقول به المشعوذون الدجالون إيماناً عميقاً لا شك فيه ، ويصدقون كل ما يقولون به دون ريب . . لأنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أو هكذا علمهم الاستعمار أن هذه الأردية الخاصة وهذه الأزياء المعينة لا يلبسها إلا ذوو الصلاح والتقوى . . والاخلاص . . والبركات . . مما دفع الاستعمار وأعوانه أن يستغلوا فريقاً من الذين لا وازع لهم من دين أو خلق لتخدير الشباب والسيطرة على أحاسيسهم باسم الدين . . والدين منهم براء . . وبهم لا يعترف . . وما زال فينا آيات خالدات تهتف بنا صباح مساء . . ﴿ **وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ فأية عزة مع الاستعمار . . وأي علو مع الظلم والطغيان ؟ !

أما اليوم فالناس ـ أو كثير منهم ـ بدأ يفهم أن الايمان ما وقر القلب وصدقه العمل . . وأن هذه المظاهر وهذه الأزياء لا تدل على صلاح وتقوى . . وعزة وكرامة . . كما لا تدل على خيانة وغدر . . ونفاق وخنوع . . وإذن فقد يخلص هذا الانسان وقد يخون . . وقد يصدق القول والعمل . . وقد يكذبهما . ومن هنا أصبح مقياس الناس جميعاً في أذهان الذين صلحت نواياهم وتطهرت قلوبهم وأقبلوا على الاسلام بأرواحهم الزكية ، هو عين المقياس الذي قيس به الأوائل الذين حملوا الهداية للكون . . ونشروا النور على ربوع العالمين : ﴿ **إن الإنسان لفي خسر إلا**

الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ . .

وعلى هذا انكشفت ألاعيب الاستعمار يوم أن خلق هالة من القدسية والتنزيه حول طبقة محترفة صنعها على عينه ثم طالبنا أن نصدق كل ما تجيء به مما يوحيه لها أعداء الاسلام لمصلحتهم . . ومصلحتهم وحدهم . . ولم نعد نصدق إلا من يدعونا للخير ويهتف باسم الله مقرراً مبادىء الاسلام الصحيح وقواعده السليمة . . لا يرده عن ذلك محنة . . ولا يحول بينه وبين ما يعتقد شدة . . أو قسوة . . أو عذاب . .

* * *

إن فهم الشعوب الخاطىء لهذا الدين العظيم هو الذي جعلها تنطلق وراء الأوهام وتسير غير نادمة في أي طريق يرسمه لها عدو أو صديق ما دام يوصلها إلى الغاية ويدنيها من القصد . . رغيفاً يملأ البطون الخاوية . . وثوباً يستر الجسد العاري . . وأمرأة تسكت صراخ البهيمية في الانسان الرجعي الذي يدعو إلى حياة الغاب من جديد . .

ومن أجل هذا نجد أن الأغلبية من شعوب الأرض التي آمنت بالشيوعية ودعت لها إنما هي شعوب كانت بلا دين . . أو كانت بدين لا حياة فيه ولا روح غير الطقوس ومظاهر الكهنوت

التي لا تغني بين فكر الحياة ومبادىء المجتمع الجديد شيئاً . .
وحتى الأفراد أو الجماعات ـ ولا أقول الشعوب ـ التي كانت تدين بالاسلام فانقلبت عليه انتصاراً للماركسية . . لم تكن تفقه من دينها إلا ما يردده حكام الشرق والمسيطرون عليه . . أو ما تصنعه لنا لندن وتوحيه « موسكو » وتمليه علينا ناطحات السحاب . . على أنه إسلام من عند الله رب العالمين ! . .

وإذن فليس أمام الشعوب إلا أن تثور وأن تتحرر من هذا الظلم وهذا الذل الذي يدعو له « أنصار الله » كما يتوهمون ، ومن أجل هذا اعتنقت شعوب المسيحية في روسيا وغيرها الشيوعية . . ومن أجل هذا نفسه اعتنقت شعوب الوثنية في الصين وغيرها الشيوعية . . ومن أجل هذا كذلك اعتنقت الشيوعية جماعات وأفراد لم يكن لهم من الاسلام غير ما رباهم عليه الاستعمار في الصغر وما طبعه في أذهانهم وهم في أحضانه . . فلما كبروا . . . ثاروا على الاستعمار . . وعلى ما لقنوه فهجروه على أنه الاسلام . . وما دروا أنهم لم يدركوا أو يلقنوا إلا قشوراً براقة ومظاهر زائفة ! . .

واليوم وقد زال كثير من العقبات المتسترة ـ ولا أقول كلها ـ : سوء الفهم لحقيقة الاسلام ، وخجل الشباب من أن ينتسبوا له ، وجهلهم لكثير من تشريعاته التي تعالج مختلف

شؤون الحياة ، وشعوذة المشعوذين التي لم تعد تنطلي على الكثيرين ، وبقي كثير من العقبات الواضحة في عداوتها للاسلام ؛ استعماراً أو فساداً أو ظلماً أو طائفية أو إقليمية أو غير ذلك من دعوات الضلال .. بدأ الاسلام يزحف .. وبدأ يتحرك .. وبدأ ينشر نوره وهدايته .

وإذا ما زحف الاسلام أو تحرك .. فلن يسمع للشيوعية صوت ولن يطل للاستعمار بقاء .. ولن تقوم للظلم قائمة .. ذلك إن في فهم الناس لحقيقة اسلامهم ـ وقد أقبلوا عليه ـ تبريراً لحقائق الأشياء وطبائعها ، وما أظن أحداً ـ مهما أوتي من قوة ـ يستطيع أن يحارب ضبائع الأشياء التي خلقها الله عليها وصبغها فيما خلق وصبغ : ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة .. ونحن له عابدون** ﴾ .

إن مظاهر الوعي الإسلامي التي غمرت العالم الإسلامي أجمع من إيران التي رددت هتاف الخلود باسم الله .. وباكستان التي ترجو أن تطهر من كل شائبة وتنظف من كل رجس لتكون الدعوة فيها خالصة لله رب العالمين .

ومصر التي أصبحت في العصر الحديث كعبة المسلمين ـ لا في صلواتهم ـ وإنما في آمالهم نحو حياة أفضل .. ومجتمع إسلامي كريم يحققه ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله**

عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ﴾ . . .

نقول : إن مظاهر الوعي هذه ما هي إلا الخيوط الأولى لإشراقة الفجر وانبثاق النور الذي بدأ يزحف ليغمر العالمين . . وسيأتي اليوم الذي يرونه بعيداً ونراه قريباً ؛ حيث تتصافح الأيدي على الخير ، وتصفو القلوب على الهدى . . ويعمل العاملون من أجل الله وحده . . وإعلاء راية الحق خفاقة في سماء العزة والكرامة والعدل . . .

وعندئذ يحقق الله تبارك وتعالى كلمته الخالدة في دستوره الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ﴾ . .

ويثبت للملأ أجمع حقيقة من حقائق الخلود : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ . .

(تم بعون الله تعالى)

فهرس

من الـكتاب

• ان الاسلام الذى يحارب الشيوعية ، هو عين الاسلام الذى يحـارب الاستعمـار ، وهـو عين الاســلام الذى يحارب الطغيان ... فافهموه على أنه كل لا يتجزأ لا تبعا لاهواء الناس يأخذون ما بدا لهم أن يأخـذوا ، ويهجرون ما بدا لهم الهجر ...

• ..... ويوم أن نفهم الاسلام على هذا الوضع فلن يكون لشيوعية أو الاستعمار أو الطغيان صوت يسمع أوامر يطاع .

يوسف العظم

